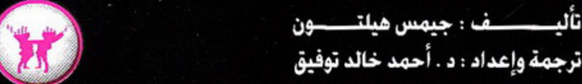
روايات عالمية للجيب 76

الأفق المفقود



تأليف : جيمس هيلتون
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق



يعتقد كـــل أمـــريكى أن أبحاث القنبلة الهيدروجينية كانت تتم فى (شانجرى ـ لا) .. لا أحد يعرف أين هى ، لكن الصحف تناقلت الخبر وقتها بغباء منقطع النظير .
القصـــة هى أن الصحفيين سألوا الرئيس الأمريكى روزفلت عن مكان الأبحاث ، وفى رواية أخرى سألوه عن مصدر انطلاق طائرات أمريكية قصفت طوكيو ، فارتبك وقال أول اسم خطر بباله (شانجرى ـ لا) . الحقيقة أن هذا مكان تخيلى ورد فى رواية الأفق المفقود للأديب البريطانى جيمس هيلتون ، لكن الصحافة راحت تكتب عن مخاطر التجارب النووية على سكان (شانجرى ـ لا) البؤساء !

فيما بعد أطلق الرئيس روزفلت اسم (شانجرى - لا) على محل إقامته فى ميرى لاند ، وهو المكان الذى غير أيزنهاور اسمه إلى كامب ديفيد ! أنت تعرف هذا الاسم الأخير طبعًا ...

فى طفولتى كان هناك فيلم شهير جدًا من بطولة بيتر أوتول اسمه (وداعًا مستر تشبس) ، وفيما بعد عرفت أنه عنوان رواية مهمة لنفس الكاتب .. جيمس هيلتون .

ولــد هلتــون عــام 1900 فى لى ببريطانيا ، وتخــرج فى كامبريدج .

كانت أول قصـــة له هى (كاترين نفسها ــ 1920) .. ثم جاءت القصة التى عرفه الجميع بها (الأفق المفقود ــ 1933) ثم (وداعًا مستر تشبس ــ 1934) و(الحصاد العشوائى ــ 1941) .

كتب (الأفق المفقود) بعــد ما قرأ بضــع مقالات عن التبت فى ناشونال جيوجرافيكس .. وقرأ عن رحالة بريطانيين اختفوا فى الشرق الأقصى ، قيــل إنهم يعيشــون فى معابد بوذية مجهولة بالتبت ، يمارسون ديانة الزن . كان على هذا الكتاب أن ينتظر .. فلم يعرف النجاح إلا بعد نجاح وداعًا مستر تشبس ، وهو بالمناسبة أول وأنجح كتب الجيب توزيعًا فى التاريخ . لقد صار بوسع الرجل العادى أن يشترى الكتب الغالية وأن يضعها فى جيبه ويطالعها فى المترو ..

استلهم هلتون أباه فى نموذج المستر تشيبس . وقد كان أبوه مدير مدرسة دينية فى والتماستو . القصة على كل حال تفوح برائحة المدارس البريطانية العريقة الصارمة مثل كامبريدج وسواها ، وهو تقريبًا الجو الذى عرفناه من هارى بوتر . وقد حقق الكتاب أعلى مبيعات لدى صدوره .

عامة يمكن أن نلخص أهم كتب هلتون :

ــ كاترين نفسها 1920

ــ ممر العاصفة 1922

ــ مروج فى ضوء القمر 1926

ــ اللهب الفضى 1928

ــ فارس بلا درع 1933

ــ الأفق المفقود 1933

ــ وداعًا مستر تشيبس 1934

ــ قصة دكتور واسيل 1944

ــ مرة ومرة أخرى 1953

قصة دكتـور واسـيل واقعيـة تحكى عن معاناة البريطانيين فى الملايو عندما دخلها اليابانيون ، وقد رأيتها فى فيلم لسيسيل دى ميل .

عام 1954 توفى هيلتون فى كاليفورنيا مصابًا بسرطان الكبد .

د . أحمـد خـالد

مقدمـة

اشتعل السيجار ، وبدأنا نمر بحالة خيبة الأمل التى يمر بها أصدقاء المدرسة القدامى ، عندما يلتقون كرجال وقد وجدوا أنهم تفرقوا أكثر مما كانوا يحسبون .

كان روذرفورد يكتب القصص ووايلاند سكرتيرًا فى السفارة ، وكان قد دعانا للعشاء فى تمبلهوف ، ولم يكن مسرورًا لهذا على ما أعتقد . لكنه كان يحتفظ ببرود الدبلوماسيين . بدا أنه لا يوجد سبب لتجمعنا معًا سوى كوننا ثلاثة إنجليز عزاب فى عاصمة أجنبية ، وقد لاحظت أن لمسة التحذلق والتأنق الزائد فى حركات (وايلاند ترتيوس) لم تختف ، وكنت أحب راذرفورد أكثر .. لقد تغير عن الصبى النحيل الذى كنت أضايقه فى الماضى . إن فكرة أنه يكسب أكثر منا وحياته أمتع منا ، جعلتنى أنا ووايلاند نشترك فى عاطفة واحدة هى الحسد .

كان الليل أبعد ما يكون عن الملل . راقبنا طائرات لوفتهانزا وهى تصل من كل مكان فى أوروبا ، وعند الغسق عندما توهجت

المصابيح بدا المشهد متألقًا كأنه مسرح . كانت إحدى الطائرات البريطانية ومشى قائدها أمام منضدتنا وحيا وايلاند الذى لم يعرفه أولاً . دعوناه بعد قليل إلى مائدتنا ، وكان رجلاً لطيف المعشر اسمه ساندرز . وقد اعتذر له وايلاند لأنه لم يتعرفه وهو يلبس الخوذة ، فقال الطيار ضاحكًا :

ـ « أعرف هذا .. لا تنس أننى كنت فى باسكول .. »

ضـحك وايلاند كذلك لكن بتلقائية أقـل ، وانتقلنا لمواضـيع أخـرى .

كان ساندرز إضافة ممتعة لصحبتنا وشربنا الكثير معًا . وقد نهض وايلاند لبعض أمره فاستدار روزرفورد يسأل الطيار :

ـ « كنت تتكلم عن باسكول .. أنا أعرف المكان نوعًا فماذا كنت تقصده ؟ »

ابتسم ساندرز فى خجل وقال :

ـ « تجربة مثيرة معينة عندما كنت فى الخدمة العسكرية .. »

لكنه كان غير قادر على الكتمان أكثر :

ـ « رجل أفغانى أو هندى فر بواحدة من طائراتنا .. أسقط الطيار وارتدى ثيابه ثم تسلق إلى قمرة القيادة دون أن يراه أحد .. أشار للميكانيكيين وانطلق بشكل ممتاز .. المشكلة أنه لم يعـد قـط .. »

ـ « متى حدث هذا ؟ »

ـ « لابد أنه منذ عام .. 31 مايو .. كنا نخلى المدنيين من باسكول إلى بيشاور بسبب الثورة . كانت هناك فوضى فى كل مكان ولولا هذا ما حدث ما حدث .. والقصة تريك أن الثياب هى ما يصنع الرجل .. »

بدا روزرفورد مهتمًا :

ـ « هل لى أن أعتقد أن أكثر من رجل يحرس الطائرة فى ظروف كهذه ؟ »

ـ « هذا صحيح .. لكن هذه الطائرة كانت طائرة خاصة بنيناها لمهراجا .. وكان رجال المساحة الهنود يستعملونها للرحلات ذات الارتفاع العالى فى كشمير .. »

ـ « تقول إنها لم تصل لبشاور قط ؟ »

« لم تصل هناك ولا أى مكان آخر .. بالطبع لو كان الرجل من القبائل فقد كان بوسعه أن يصل للجبال ، ولربما فكر فى إبقاء الركاب كرهائن . أعتقد أنهم جميعًا ماتوا بشكل ما . هناك أماكن عديدة على الحدود يمكن أن تتحطم عندها فلا يسمع عنك أحد .. »

ــ « كم راكبًا كانوا عليها ؟ »

ــ « أربعة على ما أعتقد ... ثلاثة رجال وامرأة مبشرة .. »

ــ « هل كان بين الرجال من يدعى كونواى ؟ »

هنا بدت الدهشة على ساندرز :

ــ « نعم .. جلورى كونواى .. هل تعرفه ؟ »

ــ « كنت أنا وهو فى نفس المدرسة .. ولكن هذه الحادثة لم ترد فى الجرائد .. لم أقرأ عنها قط .. »

قال الطيار فى ارتباك :

ــ « القصة كلها لم تكن مما يشرف الحكومة ، لذا اكتفت بالإعلان أن طائرة من طائراتها اختفت .. وهذا لم يجذب اهتمام الكثيرين .. »

هنا لحق بنا وايلاند فقال له ساندرز :

ــ « هذان الشابان كانا يتكلمان عن كونواى .. آسف لأننى حكيت لهما قصة باسكول .. »

صمت وايلاند لفترة ، ثم قال :

ــ « أشعر بأنه من الخطأ أن نؤرخ لهذه الحادثة .. كنت أعتقد أنكم معشر الطيارين تقسمون ألا تقصوا قصص المدرسة بالخارج .. »

هكذا تجاهل الشاب بكلامه ، ثم استدار لروزرفورد وقال :

ــ « بالنسبة لك لا مشكلة .. لكنك تفهم أن بعض مشاكل الحدود يفضل أن تظل غامضة .. »

ــ « لكننا بالفعل نرغب فى معرفة القصة .. »

ــ « والقصة لم تكتم عن أى شخص لديه أسباب لمعرفتها .. كنت فى بيشاور وقتها وأؤكد لك هذا .. هل كنت تعرف كونواى جيدًا ؟ »

ــ « عرفته فى أكسفورد قليلاً .. هل قابلته كثيرًا ؟ »



ـ « عندما كنت فى أنجورا .. التقينا مرتين أو ثلاث مرات .. كان فتى ماهرًا لكنه خمول .. »

ـ « كان بارعًا فعلاً .. وهو بطل رياضى من أبطال المدرسة كما أنه أفضل عازف بيانو هاو أعرفه .. لكن لم نسمع عنه عندما قامت الحرب .... »

قال وايلاند :

ـ « لابد أنه عمل فى أكثر من مهنة .. وكان علمه باللغات الشرقية يتيح له الكثير .. »

انتهت الأمسية وكـان الوقت قـد تأخر . فنهضنا لنرحل أنا وروذرفورد .. وكان ساندرز لطيفًا فتمنيت أن أقابله ثانية .

كنت سأستقل قطارًا عابرًا للقارة فى ساعة مبكرة من صباح الغد ، وقد وقفت أنتظر التاكسى فسألنى روزرفورد إن كنت أحب أن أمضى بعض الوقت فى فندقه . قلت إن هذا يناسبنى فقال إنه سيكلمنى عن كونواى .

لم أكن أعرف كونواى تقريبًا فقد غادر المدرسة وأنا فى نهاية الصف الأول ولم أره بعدها . فقط رأيت منه لمسات كرم لم يكن

عليه أن يظهرها . ثم ساد صمت غريب وبدا أننا نفكر فى شخص معين .. لا أعـرف السـبب لكن كـل من قابل كونواى ولو للحظة ظل يذكره بوضوح لفترة طويلة . كان مرموقًا وهو شاب .. فارع القامة وسيمًا ..

ألقى ذات مرة خطابًا باليونانية فى يوم الخطابة . أتذكر هذا .. كان من حوله جو إليزابيثى ساحر بما يحمله من تميز شكلى وعقلى . لم تعد حضارتنا قادرة على أن تربى أناسًا مثله هذه الأيام . وأعتقد أن أمثال وايلاند لم يكونوا يميلون له .. عن نفسى لم أكن أحب أمثال وايلاند البتة ، بكل ما لديهم من ذات متضخمة وجنون عظمة .

مشينا قليلاً فى صمت ثم قال روزرفورد :

ـ « كانت أمسية ممتعة خاصة عندما سمعت ساندرز يحكى تلك القصة فى باسكول . سمعتها من قبل لكن لم أصدقها .. كانت جزءًا من رحلة عجيبة لا أصدق بتاتًا أنها حدثت . الآن هناك سببان لتصديقها .. لابد أنك خمنت أننى لست شخصًا سهل الخداع وقـد سافرت كثيرًا وأعرف أن هناك غرائب كثيرة فى العالم ... »

ثم فطن إلى أن ما يقوله ليس ذا معنى مهم لى فتوقف وضحك . وقال :

ـ « هناك شئ أكيد .. لا أثق بوايلاند . لا يمكن أن أحكى له قصتى وأفضل أن أحكيها لك أنت .. »

قلت له :

ـ « أنت تجاملنى .. »

ـ « كتابك يجعلنى لا أفعل هذا .. »

لم أخبرك أننى ألفت كتابًا متخصصًا (علم الأعصاب ليس مجالاً يناسب الجميع) وقد أدهشنى أن روزرفورد سمع عنه .. قال لى :

ـ « كنت مهتمًا لأن فقدان الذاكرة كان مشكلة كونواى فى وقت بعينه .. »

وصلنا للفندق فحصل على مفتاحه ، وإذ صعدنا للطابق الخامس قال :

ـ « كونواى لم يمت .. على الأقل حتى بضعة أشهر .. »

وصل المصعد فسألته :

ـ « هل أنت واثق من هذا ؟ »

قال :

ـ « واثق لأننى سافرت معه من شانجهاى إلى هونولولو .. فى نوفمبر الماضى ... »

جلسنا فى مقعدين مريحين فى غرفته وتناولنا السيجار .. ثم قال لى :

ـ « نحن لا نتبادل المراسلات ويجب أن أقول إنه لم يخطر بذهنى .. كنت أزور صديقًا فى هانكو وعدت لبكين بالقطار . قابلت هناك مبشرة فرنسية لطيفة مسافرة إلى تشونج كيانج حيث يوجد الدير الخاص بها .. وقد راحت تحكى لى عن أحوالها . كانت تحكى لى عن مستشفى الإرسالية الذى تعمل به .. تحكى عن حالة حمى جاءت منذ أسابيع .. لابد أنه رجل أوروبى ، برغم أنه لم تكن معه أوراق وهو لا يعرف من هو . كان يلبس ثيابًا محلية لكنها فقيرة ، وتبينت الراهبات أنه سقيم جدًا .. وكان يتكلم الإنجليزية بلكنة راقية جدًا . قلت إنه من الغريب أن تلاحظ لكنة رجل يتكلم بلغة لا تعرفها أصلاً . ضحكت كثيرًا ودعتنى

للزيارة فيما بعد .. بدا لى هذا مستبعدًا طبعًا لأن معناه تسلق جبل إفرست . كان مكتوبًا علىَّ أن أعود لتشونج كيانج بعد ساعات لأن القطار تعطل ، وبصعوبة استطاع العودة بنا . وهناك عرفنا أن المحرك لن يتم إصلاحه قبل 12 ساعة . قررت أن أتصل بالسيدة المسنة التى دعتنى لزيارتها ..

رحبت بى برغم دهشتها .. أنا لست كاثوليكيًّا لكن دعنى أؤكد لك أن هؤلاء الكاثوليك ظرفاء فعلاً . وصلت هناك فوجدت أنهم أعدوا لى الغداء وجلس معى طبيب صينى ظريف يتكلم خليطًا من الإنجليزية والفرنسية . ثم جاءت الأم الراهبة لترينى المستشفى التى كانت فخورًا بها .. خطر لها أننى قد أكتب عن المستشفى فى كتاب .. كان المكان غاية فى النظافة ويبدو أنه يدار باقتدار شديد .

ثم ذهبنا لنرى ذلك الإنجليزى . رأيت مؤخرة رأسه أولاً وبدأ لى نائمًا . قلت له :

ــ « عصرًا طيبًا .. »

نظر لى فى دهشة ثم رد التحية . بدا واضحًا أن لكنته راقية فعلاً كما قالت . كنت قـد عرفته .. عرفته برغم تبدل ملامحه

ولحيته . كان هو كونواى . لو فكرت أكثر لخطر لى أنه ليس هو .. لكننى تصرفت وحى اللحظة وناديت اسمه فنظر لى فى حيرة . نفس زرقة العينين .

كان من المستحيل أن تخطئه .. يكفى أن تراه مرة لتعرفه للأبد .. قلت للطبيب والراهبة إننى أعرف الرجل . لقد فقد الذاكرة ..

كان من المستحيل عليهما فهم طريقة وصول كونواى إلى تشونج كيانج . لأختصر القصة ، بقيت هناك ليلتين آملاً أن أجعله يتذكر .. كان مسرورًا بصحبتى على كل حال ، وعندما قلت إن علىَّ أن آخذه للوطن بدا أنه غير مهتم . قمت بترتيب الأوراق وأخفيت كل شىء عن الصحافة .. كان هذا مغريًا للصحفيين جدًا لكننى نجحت فى إخفائه .

« غـادرنا الصين واتجهنا عبـر اليانجتسى إلى نانكنج ثم شانجهاى . وكانت هناك سفينة يابانية مستعدة .. »

قلت له :

ــ « أنت خدمته خدمة العمر .. »



لم ينف ذلك وقال :

ــ « لا أعرف السبب .. لكن هناك شيئًا فى كونواى يجعلك تستمتع بعمل أقصى ما بوسعك .. »

قلت موافقًا :

ــ « نعم .. كان له سحر خاص .. جاذبية كجاذبية الأطفال . حتى ونحن نتقابل فى قلب الصين وقد صار مستقبله غامضًا وماضيه مبهمًا ، كان فيه سحر خاص ..

« على ظهر السفينة حكيت له كل شىء عنه وبدا مندهشًا .. كان ما زال يذكر اللغات التى يعرفها . مثلاً كان يتكلم الهندية بطلاقة ، لذا قال إنه يعتقد أنه كان يعمل شيئًا فى الهند .

فى يوكوهاما صعد العازف الشهير سيفكنج للسفينة وتعرف بكونواى .. ودارت بينهما محادثة بالألمانية . بعد أيام قام سيفكنج بعمل بروفة عزف بالبيانو فذهبنا لنسمع . عزف الكثير من شوبان فهو مغرم به كما تعلم .. ثم نهض مع معجبيه مغادرين القاعة ، هنا حدث شىء غريب . لقد اتجه كونواى للبيانو وبدأ يعزف مقطوعة سريعة لا أعرفها .. توقف سيفكنج

عن الكلام ليعرف أى مقطوعة هذه .. لكن كونواى بذل جهدًا خارقًا ليتذكر فلم يستطع .

قال سيفكنج :

ــ « يا سيدى الفاضل .. أنا أعرف كل شىء عزفه شوبان فى حياته .. هذه الموسيقا تنتمى له لكنه لم يكتبها .. أنا واثق من هذا .. »

زعم كونواى بعد هذا أنه سمع المقطوعة من أحد تلاميذ شوبان . كان هذا مستحيلاً ببساطة .. ثم يأتى لغز المقطوعة نفسه .. على كل حال تلقى سيفكنج وعدًا بأن يعيد كونواى العزف فى أمريكا ليتم عمل أسطوانة لهذا اللحن . يؤسفنى أنه لم يفعل .

قال روزرفورد هنا إنه ما زال هناك متسع من الوقت للحاق قطارى ، لأن قصته قد انتهت فعليًّا هنا ..

ــ « لقد استرد ذاكرته فى تلك الليلة .. جاء كونواى لغرفتى وحكى لى كل شىء وقد صار وجهه أقرب للتعاسة الغالبة . للحزن الكونى .. قال إن كل شىء بدأ يعود له أثناء عزف سيفكنج على البيانو . جلس على حافة الفراش وبدأ ينتقى كلماته ..

قدم لى ما أعتبره مجاملة عظيمة :

ــ « شكرًا لله يا روزرفورد على أنك قادر على التخيل .... »

ارتديت ثيابى وأقنعته بأن يرتدى ثيابه ، وخرجنا على ظهر المركب . كانت ليلة هادئة والنجوم ترصع السماء . والبحر كأنه لبن لزج .

بدأ يتكلم بالتدريج .. ولم تنته قصته إلا فى موعد الإفطار مع شعاع الشمس الحار . لم يكن قد أنهى كل شىء .. ملأ ثغرات كثيرة فى القصة فى الأربع والعشرين ساعة التالية ..

عند منتصف الليلة التالية دنونا من هونولولو .. شربنا بعض الكئوس فى قمرتى وانصرف فى العاشرة مساء ، ولم أره قط بعدها .

قلت فى دهشة :

ــ « لا تعنى أنه ..... »

وجالت بذهنى صورة انتحار هادئ عمدى رأيت مثله من قبل على قارب .

لكن روزرفورد ضحك وقال :

ــ « لا .. لم يكن من هذا الطراز .. فقط تخلى عنى . عرفت فيما بعد أنه انضم لطاقم سفينة موز متجهة إلى جزر فيدجى .. »

ــ « كيف عرفت ؟ »

ــ « كتب لى من بانجوك .. مع شيك يسدد به التكاليف التى دفعتها أنا .. شكرنى وقال إنه متجه فى رحلة للشمال الغربى .. وهذا كلام غامض جدًا .. بلاد كثيرة جدًا حتى برلين نفسها تقع شمالى غرب بانجوك .. »

كانت قصة غريبة فعلاً ، أو هو حكاها بحيث تبدو كذلك . لا أعرف ..

ــ « راقــت لى القصــة جــدًا ، وقــد قمــت بتدوين بعض الملاحظات ونحن على ظهر المركب .. وفكرت فى أن أضم كل هذه الخواطر فى قصة سردية متماسكة . كان متحدثًا لبقًا وقد بدأت أفهمه ..... »

ثم نهض لحقيبة دبلوماسية أخرج منها حزمة من الأوراق .. وقال :

ـ « تذكر مقـولة (ترتوليان) اللاتينية : إنه حقيقى لأنه مستحيل . ليست مقولة سيئة .. »

أخذت النص وقرأت معظمه فى القطـار . سـوف أعيده له متى بلغت إنجلترا . لكن روزرفورد أرسـل لى خطابًا يطلب أن أبقى الكتاب معى لأنه مسافر إلى كشمير .. فلن يكون له عنوان ثابت .

الفصل الأول

ساء الوضع جدًا فى باسكول فى الأسبوع الثالث من مايو ، ويوم 20 جاءت طائرات من بيشاور لإخلاء السكان الغربيين . كان عددهم أكثر من 80 وقد تم نقلهم بأمان عبر الجبال . كانت هناك طائرة تبرع بها مهراجا شاندرابور ، وكانت تقل أربعة ركاب؛ هم مس روبرتا برنكلو من الإرسالية الشرقية ، وهنرى برنارد وهيو كونواى والكابتن تشارلز مالنسون مستشار صاحب الجلالة . هكذا كـان ترتيب الأسـماء فى الصـحف الهندية والبريطانية .

كانـت سـن كونواى سـبعة وثلاثين عامًا وقد قضى فى باسكول عـامين . وكـان يعـرف قدراته جيدًا ويعرف أن الوظائف الرائعـة ليسـت له .. ولهذا كان الناس يعتقدون أنه يلعب أوراقه دون براعـة ، بينما الحقيقة أنه كان يلعب بكفاءة بالغـة .

كان برونزيًا فارع القامة يوحى بأنه عنيف .. فقط إلى أن يضحك .. هنا كان يبدو كطفل . وكانت له عين ترمش بشكل عصبى يتزايد مع الإرهاق .. وبالطبع تزايدت هذه العلامة بسبب الجهد الذى بذل فى إخلاء المكان من الأوراق . كان سعيدًا لأنه سيستقل طائرة المهراجا الفاخرة بدلاً من الطائرات المزدحمة العادية .

بعد رحلة استمرت ساعة قال مالنسون إنه يعتقد أن الطيار لا يمشى فى خط مستقيم . كان مالنسون شابًا فى العشرينيات من عمره ذكيًا لكنه غير مثقف ، وقد قضى معه كونواى ستة أشهر فى باسكول وأحبه فعلاً .

لم يكن كونواى راغبًا فى الكلام ، لذا أغمض عينيه وقال إن الطيار يعرف ما يجب عمله .

بعد نصف ساعة بدأ يشعر بالإرهاق مع رتابة صوت المحرك . فقال له مالنسون :

ــ « كنت أعتقد أن فينر يقودنا .. »

ــ « أليس كذلك ؟ »

ــ « لقد نظر لنا الطيار .. ولم يكن هو .. »

ــ « ليست مشكلة .. »

ــ « لكن فينر أكد لنا أنه سيقود الطائرة ، فمن هذا ؟ »

ــ « وكيف لى أن أتذكر وجه كل طيار فى القوة الجوية ؟.. عندما نصل إلى بيشاور قم بالتعرف عليه .. »

ــ « لن نصل لبيشاور بأى شكل .. الرجل خارج المسار وأعتقد أنه لا يعرف أين هو ، إذ يطير على هذا الارتفاع .. »

لم يكن كونواى مباليًا . فليس هناك ما يجب عمله فى بيشاور .. ليس متعجلاً . هو غير متزوج وليس له أصدقاء يقلقون على تأخره .

بدأ يشعر بتقلص معدته الذى يخبره أن الطائرة تهبط .. وكان يوشك على الكلام مع مالنسون عندما نهض هذا ليوقظ بارنارد الأمريكى ..

ونظر مالنسون خارج النافذة وقال صارخًا :

ـ « رباه !.. انظر هناك !.. »

كان المنظر مـن النـافذة ليس كمـا توقع .. لم ير هناجر الطائرات ولا شيء سوى الضباب يغلف منطقة منعزلة . كانت الطائرة تهبط بسرعة لكنها ما زالـت عالية جـدًا عن الطيران المعتاد . ظهرت الجبال من بعيد .. وظهرت الحواف الضبابية للوديان .. المشهد يوحى بالحدود . وأدرك أنهم ليسـوا قرب بيشاور بتاتًا .. يبدو أن الطيار ضل طريقه فعلاً .

كانت حرارة الجو تتزايد .. بدا أن الأرض من تحتهم فرن مفتوح ..

قال الأمريكى بصوت مبحوح :

ـ « يبدو أنه يريد الهبوط .. »

قال مالنسون :

ـ « لا يستطيع .. سوف يتهشم لو حاول .. »

لكن الطيار هبـط فعـلاً . وببراعة لا بأس بها أبدًا توقفت الطائرة . ما حدث بعد هذا غريب .. لقد انقضت مجموعة من رجال القبائل واللحى والعمائم من كل الاتجاهات .. أحاطت بالطائرة ومنعت خروجنا . ترجل الطيار وانضم لهم ، وهنا فهمنا أنه ليس فينر فقط ، بل هو كذلك ليس بريطانيًا أصلاً .

راحوا يملئون الخزانات بالجازولين ، بينما كانت أى محاولة احتجاج منا تقابل بحركة مهددة من البنادق . كان الحر شديدًا وقد صار الهواء داخل الطائرة كأنه فرن .. حتى أوشك الركاب على فقدان الوعى .

ناولوهم خزانًا امتلأ بالماء من النافذة .. ثم تسلق الطيار إلى قمرة القيادة وحرك أحدهم المروحة ، فانطلقت الرحلة من جديد . وكان الانطلاق بارعًا فعلاً برغم ضيق المكان .

وكان الوقت عصرًا عندما ارتفعت الطائرة واتجهت للشرق .

هدأ الهواء البارد من روعهم ، لكنهم ظلوا لا يصدقون أن هذا حدث فعلاً .. كانوا يشعرون بمهانة لم يشعروا بها من قبل .

اقترح مالنسون النظرية التى لم يجدوا أفضل منها .. لقد تم اختطافهم من أجل فدية .. هذا حدث من قبل مرارًا وفى الغالب يعاملك رجال القبائل معاملة كريمة إلى أن تدفع الحكومة الفدية . تجربة منفرة لكنها تنتهى بسرعة وتترك لك قصة جيدة تحكيها لأصدقائك فيما بعد .

قال الأمريكى :

ــ « فى الحقيقة لا أجد فى هذا ما يشرف الحكومة البريطانية .. أنت معشر البريطانيين تتسلون بقصص السطو المسلح عندنا فى شيكاغو ، لكن لا أعرف أى قصة قام فيها المسلحون بسرقة طائرة ... »

كان رجلاً ضخمًا لا يعـرف عنه سكان باسكول كثيرًا ، لكنهم يعرفون أنه قادم من إيران وكان يعمل فى النفط .

أما كونواى فكان يكتب رسائل بعـدة لغات .. وكان ينوى أن يلقى بها مـن الطائرة .. وهو أمل ضئيل جدًا . مس برينكلو

جلست صامتة لا تعلق .. بدا أنها امرأة حضرت حفلاً تدور فيه أمور لا تقرها بأى شكل .

كان كونواى مرهقًا وأغمض عينيه ونام . قال مالنسون للأمريكى :

ــ « أعرف أنه لم ينم طيلة أربعة أيام .. من حسن حظنا أن يكون معنا رجل كهذا .. خاصة أنه يجيد لغات شرقية كثيرة ومخه مرتب .. »

قالت مس برينكلو :

ــ « أعتقد أنه رجل شجاع جدًا .. »

لم يكن كونواى نائمًا فى الواقع . كان يسمع حركة الطائرة وهديرها .. كان يشعر بتقلص فى معدته .. فهو يعرف جيدًا عن نفسه أنه ليس ممن يحبون المخاطر لذاتها . كان يجد فى الأمر بعض الإثارة ، لكنه فى الوقت ذاته لم يكن ممن يضحون بحياتهم . وقد حارب فى فرنسا فرأى ما يكفيه من أهوال فى حروب الخنادق .

لقد أقلقه ما سمعه من مالنسون .. وقدر أن مس برينكلو ستكون أكثر أهمية وقيمة من الآخرين ، لأنها امرأة .. وهذا يعنى أنها تحتاج إلى عناية أكثر . أدرك أنها ليست شابة وليست جميلة .. وشعر بإشفاق عليها لأنه أدرك أن مالنسون والأمريكى لا يحبان النساء المبشرات .

قال لها :

ـ « واضح أننا فى ورطة غريبة .. لكنى مسرور أنك تأخذين الموضوع بهدوء .. لا أعتقد أن شيئًا خطيرًا سيحدث ... أرجو ان تخبرينى بأى شىء يمكن عمله لتكونى مستريحة أكثر .. »

التقط بارنارد الكلمة :

ـ « مستريحة ؟.. لابد أنكِ مستمتعة بالرحلة جدًّا .. من المؤسف أننا لا نملك مجموعة أوراق لعب .. »

قال كونواى باسمًا :

ـ « لا أظن مس برينكلو تلعب الورق .. »

قالت فى حماسة :

ـ « بالعكس .. لا أرى ما يمنع ذلك فليس هناك شىء ضدها فى الإنجيل !.. »

ظلت الطائرة محلقة طيلة العصر فى طبقات الجو العالية ، دون أن تبدو الأرض تحتها . فقط كان من المؤكد أن الرحلة استهلكت الكثير جدًّا من الجازولين .. لم يكن كونواى يعرف شيئًا عن الطيران لكنه قدر أن من يحلق بهم هو خبير .

مع الوقـت بـدا واضحًا أن مالنسـون هو الأقـل تماسكًا والأكثر توترًا . وفجأة علا صـوته فـوق هدير المحرك قائلاً فى غضب :

ـ « انظر .. هل سنظل هنا بينما هذا المخبول يفعل ما يريد ؟.. ماذا يمنعنا من اقتحام قمرة القيادة وإخراجه ؟.. »

قال كونواى :

ـ « لا شىء على الإطلاق .. سوى أنه مسلح ونحن لا .. كما أن أحدنا لا يعرف كيف يهبط بهذه الآلة .. »

ــ « لا أعتقد أن الأمر صعب .. أجسر على القول إنك تقدر على هذا .. »

ــ « عزيزى .. لماذا تتوقع منى دومًا القيام بالمعجزات ؟ »

ــ « الأمـر يدمـر أعصـابى .. لم لا نجبـره على ذلـك ؟ إنـه على بعـد سـتة أقـدام منـا ونحـن ثـلاثـة رجـال .. ربمـا اسـتطعنا أن نرغمـه على أن يخبـرنا بحقيقـة هـذه اللعبـة .. »

كانت قمرة القيادة مفصولة عـن الركـاب بباب فيه لوح زجاجى قابل للفتـح ، وعـن طريقـه يستطيع الطيـار التفاهم مع المسـافرين . دق كونواى على الزجـاج .. هنـا انفتـح الزجـاج وظهـرت فوهـة مسدس بساقية .. تراجع كونواى بلا كلمة .

قال مالنسون :

ــ « لا أحسبه يقدر على إطلاق النار .. إنه يبلف .. »

قال كونواى :

ــ « سـوف أتركـك تتـأكد من هـذا .. إن الدخول فى معركة بلا أمل فى النصر عمل أحمق .. وأنـا لسـت هذا الطراز من البشر .. »

كان مرهقًا .. فى طباعه عادة يعتبرها الناس كسلاً ، برغم أن هذا غير صحيح .. كان قادرًا على القيام بأشق الأعمال لو طلب منه ذلك ، لكنه لم يكن مولعًا بكثرة الحركة .. ولم يكن يستمتع بالمسئولية . وكان يتخلى عن المسئولية على الفور لمن يشعر بأنه قادر على تحملها . ولم يكن بارعًا فى فن القيام بعمل لا شىء عندما لا يكون هناك شىء يعمل . لذا كان الناس يشعرون بأن فيه لا مبالاة معينة وقت الخطر . وكان يعشق الهدوء وأن يكون وحيدًا .

لهذا استرخى للخلف حيث لم يكن هناك ما يقوم به . وغاب فى النوم . عندما فتح عينيه أدرك أن النوم غلب الآخرين مثله . أحس بتغيرات فسيولوجية واضحة .. قلبه يدق بقوة وتنفسه صار عميقًا مع دوخة خفيفة .. تذكر أعراضًا مماثلة فى جبال الألـب .

نظر من النافذة . وفى ضوء العصر رأى ما خطف الهواء الباقى فى رئتيه .

هناك عن بعد تبين قمم الجبال المغطاة بالثلج والطافية فوق السحب . كأنها لوحة تأثيرية رسمها عبقرى نصف مجنون . وبدأت الطائرة تنحدر وأمامها ما بدا كأنه جدار أبيض عملاق . لم يكن كونواى يتأثر بسهولة ولم يكن يهتم بالمناظر الطبيعية .. ذات مرة أخذوه ليرى الشروق على جبل أفرست فبدا له الموضوع مخيبًا للأمل . لكن المشهد خلف زجاج الطائرة بدا مختلفًا .. كان هناك شىء غض ورهيب فى تلك القمم .. شعر بأن مالينسون قد أفاق فلمسه بيده .

الفصـل الثانى

بدا لكونواى أنهم ما زالوا فى الهند .. لقد حلقوا شرقًا لعدة ساعات وكان الارتفاع عاليًا جدًّا ، لكن لابد أنهم حلقوا مع أحد وديان الأنهار يمتد من الشرق للغرب .

ــ « لا أريد الاعتماد على الذاكرة ، لكن أعتقد أن نهر إندوس ينطبق على هذا بقوة .. إنه يقودنا إلى جزء رائع الجمال من العالم كهذا الذى ترونه .. »

قال بارنارد :

ــ « إذن أنت تعرف أين نحن ؟ »

ــ « لم أدن هنا من قبل .. لكن لن أندهش لو كان هذا جبل نانجا باربات . الجبل الذى مات مومرى فوق قمته .... »

قال مالنسون فى تعاسة :

ــ « أتمنى لو أعرف إلى أين نحن ذاهبون .. »

قال كونواى :

ــ « أعتقد أن هذا هو كاراكورامس .. سيحتاج لعدة دورات لو كان رجلنا ينوى عبوره .. »

صاح مالينسون :

ــ « تقول رجلنا ؟.. تعنى (مجنوننا) .. أعتقد أن وقت نبذ نظرية الخطف قد حان .. لقد عبرنا الحدود وما من قبائل هنا . الاحتمال الوحيد المعقول هو أن الرجل مجنون .... »

كان الجالسون برغم جهلهم بالجغرافيا يدركون أن هذه جبال عالية وعرة فعلاً ، وتحتاج إلى براعة منقطعة النظير من الطيار .

رأى كونواى من النافذة أن الضوء صار لونه أزرق فوق الجبل ، ينحدر لأسفل ليتخذ طابعًا بنفسجيًا . شعر بحالة تحفز قوية . ليست خوفًا ..

قال مالنسون :

ــ « أنا لن أجرى تصويتًا على الموقف .. ما أعرفه هو أننا لم نختر القدوم هنا . والله وحده يعرف ما سنفعله عندما نصل .

لأن الرجل قد يكون مجازفًا أو مؤدى حركات خطرة .. المهم أنه مجنون .. »

صمت كونواى . وجد من الصعب أن يزأر فوق محرك الطائرة طيلة الوقت وهو لم يرغب فى النقاش .. قال لمالنسون :

ــ « جنون منظم جدًا .. تذكر أن هذه هى الطائرة الوحيدة القادرة على بلوغ ارتفاع كهذا .. »

ــ « هذا لا ينفى أنه مجنون .. إذن علينا أن نضع خطة .. ماذا سنفعل ساعة الهبوط ؟.. هل نهرع ونهنئه على طيرانه الممتاز ؟ »

قال بارنارد :

ــ « مستحيل .. سوف أتركك تقوم بهذا العمل .. »

أدرك كونــواى أن مالنســون ميــال للشــجار ولعــل هــذا بسبب الارتفاع . إن الهواء المخلخل له تأثيرات متباينة على النـــاس .

نظر للجبل العظيم وشعر برضا بالغ لأنه ما زالت على الأرض أماكن كهذه . بعيدة .. غير مسكونة .. كانت قمة كاراكورامس

تنتصب فى السماء الشمالية . وكان للقمم بريق يبعث القشعريرة . مفعمـة بالكبرياء .. هـذا الارتفـاع الشامخ وبرغم هـذا هو أقل مـن الجبـال الشـامخة المعروفـة .. هـذا أبقـاها بعيـدة عـن مغـامرات المتسلقين . كانت تمثـل إغراء أقل لهـواة تحطيم الأرقـام القياسية . وكـان كونواى يجـد شيئًا مـن السوقية فى هـذه الطريقة الغريبة فى تمجيد ما هو عال أو كبيـر .

جاء الشفق وغطى اللون المخملى القمم كأنه صبغة . وارتفع بدر مكتمل يلمس كل قمة بالترتيب كأنه مشعل .. برد الجو وراحت الطائرة تهتز بشكل مزعج .

هبطت معنويات الركاب كثيرًا .. لم يخطر ببال أحد أن تستمر الرحلة بعد الغسق ولم يعد من أمل سوى أن يفرغ الجازولين . وهذا سوف يحدث حالاً ..

قال مالنسون إن الجازولين يغطى ألف ميل لابد أنهم قطعوا معظمها...

ـ « وأين يقودنا هذا ؟.. »

ـ « ليس الحـكم سهلاً .. لكنـه بالتأكيد جزء من التبت .. لو كانت هذه جبال كاراكورامس فالتبت خلفنا .. لابـد أن هـذه قمة K2 الذى يعتبرونه ثانى أعلى قمة فى العالم .. »

قال بارنارد :

ـ « الثانى بعد إفرست .. رباه !.. لابد أنه مشهد مذهل .. »

ـ « ومن وجهة نظر المتسلق فهو أصعب من إفرست .. لقد وصفها الدوق أبوزى بأنها قمة مستحيلة .. »

قال مالنسون :

ـ « لكن لماذا نحن هنا ؟.. وكيف تتكلمون مازحين عن هذا كله ؟ »

استدارت مس برنكلو كأنها تشاهد مسرحية وقالت :

ـ « ما دمتم لم تطلبوا رأيى فلربما ليس علىَّ أن أعطيه ، لكن يجب أن أقول إننى أتفق مع مستر مالنسون فى أن الشاب البائس قد جن .. لا عذر له إلا الجنون .. تخيلوا أن هذه أول مرة أجرب فيها السفر بالطائرة !.. أول مرة !.. تصوروا هذا .. »

قال بارنارد :

ـ « أنت تطيرين من الهند للتبت .. هكذا تحدث الأمور .. »

ـ « لى صديق زار التبت وقال إنهم قوم غريبو الأطوار . يعتقدون إننا جئنا من القردة .. »

ـ « هذا ذكاء منهم .... »

ـ « لا أقصد بالطريقة الحديثة . بل أساطيرهم . أنا أؤمن أن داروين مخطئ وأستمد يقينى من التوراة .. »

ـ « أنت أصولية إذن ؟ »

وأغمض كونواى عينيه ... اعترف لنفسه أن هناك شيئًا فاتنًا فى مس برنكلو ، وقرر أن ينزع جزءًا من ثيابه ويقدمه لها طلبًا للدفء ، ثم أجل هذه الخطوة لأن السيدة تبدو أقوى منه بكثير .

فجأة صحا الجميع على الآلة تترنح . اصطدم رأس كونواى بالنافذة فشعر بدوار . ثم سقط بين صفى مقاعد .. كان فى أذنيه صوت ضوضاء .. ثم أدرك أن المحرك متوقف وأن الطائرة تهوى مندفعة .

لمست الطائرة الأرض وصرخ مالنسون :

ـ « إنه يهبط !.. »

أصلحت مس برنكلو وضع قبعتها كأنها فى رحلة هادئة جدًا .

كان الهبوط سيئًا بشدة ، وتمسك مالنسون بمقعده وهو يصرخ . هنا دوى صوت انفجار إطار ، فصاح مالنسون :

ـ « هذا ينهى الأمر ..!.. سنظل هنا للأبد !.. »

لم يكن كونواى يهوى الكلام .. تحسس رأسه فى موضع الصدمة .. لا شىء خطيرًا .. نهض مالنسون واتجه لباب القمرة مستعدًا للوثب . لم يسمعوا شيئًا سوى الصمت وسوى صوت الريح .. شعروا بأنهم فى نهاية العالم . كأن الأرض كلها فى مزاج عام من الشجن . وقد أضاءت النجوم خواء فسيحًا . يسهل أن تتصور أن هذا المكان قمة جبل .. بل هو جبال تبرز من قمم جبال .

اندفع مالنسون نحو قمرة القيادة صائحًا :

ــ « أنا لست خائفًا من هذا الرجل على الأرض .. سوف أقبض عليه حالاً .. »

راقبه الباقون فى خوف .. حاول كونواى أن يوقفه . لكن بعد لحظة برز الشاب عائدًا وهو يمسك بذراعه ويقول متلعثمًا :

ــ « الأمر غريب يا كونواى .. لكنه مريض أو ميت .. تعال وألق نظرة فأنا أخذت مسدسه .. »

قال كونواى :

ــ « هات المسدس .. فهو معى أفضل .. »

كان يشعر بدوار شديد من الضربة . ودنا من قمرة القيادة ليلقى نظرة . كانت هناك رائحة جازولين قوية ورأى الطيار ورأسه على مفاتيح القيادة . هزه وفك خوذته .. ثم عاد لرفاقه ليخبرهم :

ــ « لقد حدث شىء لعنقه .. يجب أن نخرجه .. »

لكن كان من الواضح أنه تغير .. صوته صار حادًا ومصممًا ولم يعد هناك أى تردد فى سلوكه . كان هناك عمل يجب القيام به .

كان الطيار فاقد الوعى وليس ميتًا .. لم يكن كونواى ذا خبرة طبية لكنه كان يفهم أنواع العلل وقد قدر أنها نوبة قلبية بسبب الارتفاع العالى . وقرر أن يضعوا الرجل فى القمرة ويتواروا بدورهم من ريح الليل العنيفة الباردة .. هم لا يعرفون أين هم ، لذا لا يمكن عمل شىء قبل شروق الشمس .

كانت الريح قاسية فعلاً وظلت مستمرة طيلة الليل .. لم تكن ريحًا بل هى جو من الجنون حولهم طيلة الوقت . أخرجت مس برنكلو زجاجة براندى ، وقالت إنها لا تذوق هذه المشروبات لكن ربما استطاعت جرعة من المشروب أن تفيق الطيار . فتح كونواى الزجاجة وصب بعض البراندى فى حلق الرجل . بدأت جفون الرجل تخفق ..

كان مالنسون أقرب لتلميذ مدرسة عصبيًّا متوترًا ، لكن كلمات كونواى الصارمة جعلته يصـمت . إن كونواى كان يعرف أن الحفاظ على حياة الطيار هو الأمل الوحيد فى فهم ما يحدث . كان قد قدر أن الرحلة تجاوزت حدود الهيملايا الغربية نحو مرتفعات كوين لون . معنى هذا أنهم بلغوا أقل الأماكن رحابة

على وجه الأرض .. هضبة التبت . ارتفاعها ميلان متسعة غير مسكونة ..

هم فى هذا البلد البائس منبوذون . هنا حدث شىء كأنما يؤكد الكوابيس التى يفكر فيها .

برز القمر من فوق قمة مدببة وبدأت الظلمة تنقشع . رأى كونواى واديًا تحيط به تلال حزينة .. اتجهت عيناه لقمة الوادى بالذات ، فرأى فى ضوء القمر المتراقص ما بدا له كأنه أجمل جبل رآه فى حياته . كـأنه قمع حسن الاكتمال من الثلج .. بسيط كأن طفلاً هو الذى رسمه . وكان من المستحيل أن تعرف حجمه الحقيقى أو بعده عنك . تساءل للحظة إن كان حقيقيًا ..

فكر فى أن يوقظ الباقين ليريهم المنظر ، ثم قرر أن التأثير مخيف برغم جماله .. يعكس العزلة والخطر . لابد أن أقرب مكان بناه البشر يقع على بعد مئات الأميال . كانوا بلا طعام وغير مسلحين . ثيابهم لا تناسب المشى فى هذه الأصقاع .. حتى مس برينكلو بثيابها الثقيلة التى بدت سخيفة لكونواى فى البداية لم تكن لتتحمل البرد أكثر . مالنسون بدأ يهذى بسبب الارتفاع ويسهل معرفة ما سيحدث له بعد ساعات .

كان كونواى يراقب الآخرين ، واعترف لنفسه بأنه معجب بها .. معجب بها أكثر من مجرد امرأة تعلم الأفغان غناء التراتيل الدينية .

ركز على الطيار الذى بدأ يتنفس الآن .. وكان يتحرك كذلك . خمن أن الرجل صينى . له أنف مغولى تقليدى برغم أنه أجاد التخفى كملازم طيران بريطانى . وكان وسيمًا إلى حد ما ..

توغل الليـل .. كل دقيقـة بدت شـيئًا ثقيلاً يجـب دفعـه ليفسح الطريق للدقيقة التالية . بدأ البرد والظلام يحتشدان .. وسـاد صـمت رهيب . ومع الفجر ظهـر الجبل من جديد .. رماديًا أولاً ثم فضيًا ثم ورديًا .. كان مشهدًا رهيبًا لكنه مفعم بالجمال .

ازداد الهواء دفئًا وصحا الآخرون .. اقترح أن يُخرجوا الطيار من الطائرة حيث يساعد الهواء وضوء الشمس على إفاقته . فى النهاية فتح الرجل عينيه .. وبدأ يتكلم فى تشنج . لم يفهم المسافرون ما يقول .. ربما باستثناء كونواى الذى التقط بعض الكلمات . بعد قليل ضعف الرجل وبدأ يتكلم بعسر .. وفى النهاية مات . كان هذا عند منتصف النهار .

قال كونواى :

ـ « يؤسفنى أنه لم يقل أى شىء مهم سوى أننا فى التبت .. وهذا شىء واضح .. إن الصينية التى يتكلمها غريبة ، لكن أعتقد أنه قال شيئًا عن دير قريب . أطلق عليه اسم شانجرى ـ لا .. هكذا قال .. (لا) كلمة تبتية معناها (ممر فى الجبال) .. كان مهتمًا بأن نذهب هناك .. »

قال مالنسون :

ـ « وهو سبب كاف حتى لا نذهب .. فى النهاية هو مجنون .. أليس كذلك ؟ »

ـ « لو لم نذهب هناك فإلى أين نذهب ؟ »

ـ « لا فارق عندى .. فقط لو وجدنا شانجرى لا هذا فنحن نبعد خطوات عن الحضارة ولا ندنو منها .. »

فى صبر قال كونواى :

ـ « أخشى أنك لا تفهم الوضع ... نحن فى موضع من العالم لا يعرف عنه أحد أى شىء .. تذكر أن مئات الأميال تحيط بنا من كل جانب ، فإن فكرة المشى عائدين إلى بيشاور لا تبدو لى ممكنة .. »

قالت مس برنكلو :

ـ « لا أحسبنى قادرة على هذا ..... »

قال كونواى :

ـ « ليس لدينا طعام .. والمكان لا يسمح بالحياة فيه .. لو قضينا الليل هنا فلسوف نواجه الريح من جديد وأضيف لهذا الجوع . فرصتنا الوحيدة هى أن نجد بشرًا ، وخير مكان نبحث فيه هو المكان الذى قيل لنا إنهم فيه ؟ »

ساد الصمت فقال كونواى :

ـ « أعتقد أننا متفقون ؟.. هناك طريق عبر الوادى لا يبدو لى شديد الانحدار . سوف نهبط عبره .. ليس بوسعنا دفن هذا الرجل دون ديناميت .. أعتقد أن رجال الدير يمكن أن يمنحونا حمالين لرحلة العودة .. فقط أقترح البدء حالاً حتى إذا لم نجد شيئًا كان الوقت كافيًا للعودة وقضاء الليل فى الطائرة .. »

قال مالنسون :

ـ « ولو وجدنا الدير .. هل عندك ضمان أننا لن نقتل ؟ »

ـ « لا ضمان .. لكنه أفضل من الموت جوعًا وبردًا .. على كل حال القتل آخر شىء يمكن أن تفكر فيه فى دير بوذى .. من الأسهل أن تقتل فى كاتدرائية بريطانية .. »

نظر الجميع إلى القمع المتوهج ..

بدا رائعًا فى ضوء شمس النهار . ثم فجأة رأوا عن بعيد رجالاً يمشون فى الوادى نحوهم ..

همست مس برنكلو :

ـ « العناية الإلهية !.. »

الفصـل الثالث

كان كونواى بطبعـه أميـل للمراقبة ، لكنه ظل صامتًا وهو يراقب قدوم هؤلاء الغرباء . لم يكن هذا وليد شجاعة أو برود أو ثقة .. كان الأمر أقرب للتراخى والرغبة فى عدم مقاطعة المشهد الذى يتابعه .

بدا أن القادمين دستة من الرجال يحملون مقعدًا مغطى . بدا أن الجالس فى المقعد رجل يلبس عباءة زرقاء . بدا الأمر كأنه مشهد عناية إلهية كما قالت هى بالضبط ..

بدأ يمشى نحو الرجال فى بطء ودون استعجال ، لأنه يعرف أن الشرقيين يحبون طقوس اللقاء ويحبون أن تأخذ وقتها . توقف على بعد ياردات وانحنى .

هنا لدهشته نهض لابس العباءة ومد يده له . ورأى كونواى رجلاً صينيًا مسنًا رمادى الشعر حليقًا بعناية . وبإنجليزية متقنة للغاية قال :

ـ « أنا من دير شانجرى ـ لا .. »

انحنى كونواى ثانية . وبدأ يشرح ظروف وصولهم ، هنا أوقفه الصينى بإشارة من يده وقال :

ــ « هذا مثير للاهتمام .. اسمى شانج لو أردت أن تقدمنى لرفاقك .. »

كان كونواى منبهرًا .. هذا الصينى يتكلم إنجليزية متقنة ويستخدم أتيكيت بوند ستريت فى مجاهل التبت .

ــ « كنا فى الطريق لديركم .. لو لم تكن المسافة بعيدة .... »

ــ « ليست بعيدة .. لكنها ليست سهلة .. سوف أرافقكم .. »

قال مالنسون فى اندفاع :

ــ « نحن نرغب فى أن نستأجر بعض رجالكم ليرجعونا إلى حيث الحضارة .. »

قال الصينى :

ــ « وهل أنت متأكد أنك بعيد عنها ؟ »

ــ « على الأقل أعرف أننى بعيد جـدًا عن المكان الذى أرغب أن أكون فيه .. سوف ندفع لكم ، لكن كم من الوقت نحتاج لنعود للهند ؟ »

ــ « هذا لا أقدر أن أجيب عنه .. »

كاد مالنسون يتشاجر لكنه فوجئ برؤية الفاكهة والنبيذ .. برز رجال من التبت يلبسون جلود ماشية وقبعات من الفراء وأحذية من جلد الياك ، وقدموا الفاكهة والنبيذ .. كانت الفاكهة تتضمن المانجو الشهية بشكل مؤلم .. أكل مالنسون كمن لم يأكل من قبل ، لكن كونواى لم يفته أن يتساءل عن الطريقة التى تنمو بها المانجو على هذا الارتفاع.

كان ينظر للجبل فى اهتمام عندما سمع الصينى يسأله عن سبب نظره للجبل ، فسأله عن اسمه .. قال :

ــ « اسمه جبل كاراكال .. »

ــ « لم أسمع عنه من قبل .. هل هو عال ؟ »

ــ « ثمان وعشرون ألف قدم .. »

بدأت الحملة تتجه نحو الدير طيلة الصباح .. ببطء لكن الجهد العضلى كان منهكًا فعلاً على هذا الارتفاع . كان الصينى يجلس فى مقعده مستريحًا وهو ما بدا متناقضًا مع الفروسية تجاه مس

برنكلو . حتى كونواى الذى لا يتعبه الهواء المخلخل كان يجاهد كى يلحق بحملة المقعد . توقفت المحادثة مع الزعيم لأنه أغلق الستائر وبدا كأنه يستمتع بنوم قصير .

كانت الشمس دافئة وقد زال الجوع والظمأ .. لكن الهواء كان يزداد ندرة وكان على المرء أن يتنفس بصعوبة وعمدًا .. ومع الوقت كان العقل يشعر بأنه مخدر . كانت مس برنكلو تخوض غمار حرب رئوية لم تخفها . فقال كونواى :

ــ « نحن تقريبًا عند القمة .. »

قالت :

ــ « ذات مرة جريت وراء قطار فشعرت بالشىء ذاته .. »

بعد ميلين من الوادى صار التسلق أكثر انحدارًا وصعوبة . وكانت السحب تغطى الشمس . ودوى الرعد من أعلى ثم صار الجبل باردًا قارس المناخ . وشعر كونواى أنه غير قادر على التسلق أكثر .

كان بارنارد ومالنسون مرهقين جدًا .. لكن التبتيين أشاروا بما معناه أن باقى الرحلة سهل .

هنا فوجئوا بأن الرجال يفكون بعض الحبال . خطر لمالنسون أن الخطوة التالية هى الشنق .. ثم أدركوا أنهم يريدون ربط المتسلقين ببعض من أجل التسلق . وأدرك التبتيون أن كونواى خبير بالتسلق لذا تركوه يربط الرجال ، فربط نفسه خلف مالنسون وجعل رجلاً من التبت فى المؤخرة وفى المقدمة .

كان عليهم أن يتحركوا عبر ممر أفقى فى صخرة لا يرون أعلاها بسبب الضباب الكثيف . كان الممر لا يتجاوز قدمين فى العرض .. وقد شعر بإعجاب شديد بتحكم الرجال فى المقعد ، كما أعجب بثبات أعصاب الجالس على المقعد .. ولكن الرجال صاروا فى وضع أفضل عندما بدأ الممر يتسع وينحدر لأسفل . قال كونواى لرفاقه :

ــ « كان من المستحيل أن نصل هنا وحدنا .. »

لكن مالنسون كان يزداد عصبية فقال له كونواى :

ــ « لو رأيت فى حياتك ما رأيته أنا ، فلسوف تجد أنه من القرارات الحكيمة أحيانًا ألا تفعل شيئًا على الإطلاق .. الحرب تعلمك هذا .. »

ــ « لم نجد هذه اللمسة الفلسفية فيك فى باسكول .. »

ــ « لأن تغيير الأمور كان واردًا وقتها .. أما هنا فنحن هنا لأننا هنا .. لا شىء نفعله .. »

هنا بلغوا منحدرًا صاعدًا سلب الهواء من رئاتهم .. واستوت الأرض بعدها ومشوا فى هواء تغمره الشمس . وهناك كان دير شانجرى لا .

بدا لكونواى كأنه هلوسة سببها نقص الأكسجين . كان مشهدًا غريبًا بالفعل كأنها بتلات أزهار تتعلق بالجبل .. وكانت عيناك تنتقلان من الأسطح الزرقاء إلى معقل من الصخر الرمادى فوقها ، وخلفها يبدو القمع الثلجى الذى يغطى منحنيات كاراكال . وخطر لكونواى أن هذا قد يكون أكثر الجبال إرعابًا فى العالم ، وتصور الضغط الهائل للجليد على الصخور .

كان جدار الجبل ينحدر لأسفل بشكل شبه عمودى إلى شرخ لابد أن عوامل التعرية صنعته مع الوقت . وكان الوادى يستقبل عينيك بلون أخضر ودود ، فبدا لكونواى مكانًا أليفًا مشرقًا . إلا أنه لو كان مسكونًا فلابد أن سكانه فى عزلة كاملة عن العالم . لا يبدو أن هناك أى طريق للتسلق إلا من ناحية الدير . هناك شعور خاص بالنهاية يغمرك فى هذا المكان .

لا يذكر فعلاً كيف تم استقباله فى الدير ولا كيف استقبلوا رفاقه . كان الهواء الخفيف المخلخل يغمره بشعور كالتخدير .. فلم يعد يبالى بنكات بارنارد ولا توتر مالنسون ولا استعداد مس برينكلو للأسوأ . فقط دهش لما رأى داخل الدير دافئًا متسعًا ونظيفًا ... هنا ترك الصينى مقعده واقتادهم .

قال الصينى :

ــ « يجب أن أعتذر عن تركى لكم فى الطريق ، لكن هذه الرحلات لم تعد تناسبنى وعلىَّ أن أعنى بنفسى ... »

قال كونواى :

ــ « تصرفنا .. »

ــ « جميل .. سوف أريكم غرفكم .. أراهن أنكم تريدون الاستحمام كذلك .. »

قال بارنارد وهو يلهث طلبًا للهواء :

ــ « هل سنقف جميعًا عــراة فى الحمــام أم إن هــذا فندق أمريكى ؟ »

قال الصينى :



ـ « سوف تجد ما يناسبك .. وبعدها سيسرنى أن تنضموا لى للعشاء .. »

قال مالنسون :

ـ « بعد هذا لو لم يضايقك هذا ، سوف نرتب موضوع عودتنا .. كلما أسرعنا كان هذا أفضل .. »

الفصل الرابع

قال شانج :

ـ « كما ترون .. لسنا بالبربرية التى تتوقعونها .. »

هذه المرة لم يستطع مالنسون أن يعترض ، فقد كان يشعر بخليط من الراحة الجسدية واليقظة العقلية . لم يتصور أن يكون هناك نظام تدفئة مركزى فى دير بوذى .. نفس الأساليب الصحية الغربية مع مزيج شرقى جميل . الحمام الذى نعم به كان من البورسلين الأخضر من إنتاج أكرون ـ أوهايو . لكن الخادم اعتنى به على الطريقة الشرقية ونظف جسده وأذنيه ..

كان كونواى قد عاش عشر سنوات فى الصين وهو يعتبرها من أســـعد أعوام حيـــاته . كان يحب الصينيين .. وكان يحب طعامهم ، لذا شعر بألفة شديدة مع أول وجبة له فى شانجرى لا.

شك كذلك فى أن الوجبة بها عشب أو شىء يحسن التنفس ؛ فقد لاحظ سهولة فى تنفسه وتنفس رفاقه . لم يأكل شانج سوى بعض السلطة الخضراء ولم يذق الخمر

كان كونواى يراقبه وخطر له أن تخمين سنه مستحيل .. يمكن أن يكون شيخًا مكتمل اللياقة أو شابًا شاب قبل الأوان . والحقيقة أنه كان يحوى شيئًا من الجاذبية .

كان الجو صينيًا أكثر منه تبتيًا .. وهكذا شعر كونواى بأنه فى داره . الضوء من فوانيس ورقية مع الزخارف والنقوش . شعر براحة واسترخاء وبدأ يفكر فى احتمال وجود عقار فيما طعموه . لم يناقش أى شىء ذى أهمية حتى انتهت الوجبة فأشعل سيجارة وقال :

ـ « أنتم مجتمع محظوظ .. وشديدو الضيافة للغرباء . لكن لا أتوقع أنكم تلقون الكثير منهم .. »

قال الصينى :

ـ « نادرًا ... هذا جزء منعزل من العالم .. »

قال كونواى :

ـ « أنتم بعيدون عن فرق الرقص ودور السينما والأضواء الكهربية .. السباكة عندكم غريبة وهى الشىء الوحيد فى رأيى الذى يمكن أن يأخذه الشرق من الغرب .. »

سألت مس برنكلو :

ـ « نريد معرفة قصة هذا الدير .. »

رفع الصينى حاجبه فى تهذيب وقال :

ـ « هذا يشرفنى يا مدام ... ماذا تريدين معرفته ؟ »

ـ « كم عددكم ؟.. ما هى جنسيتكم ؟.... »

ـ « من هم فى درجة لاما يبلغون خمسين .. هناك من لم يبلغوا الدرجة بعد مثلى . ما زلت نصف لاما أو مرشحًا لو أردت قول ذلك .. نمثل دولاً عديدة لكن كما هو متوقع فإن أكثرنا صينيون أو تبتيون .. »

ـ « هل هناك بريطانيون ؟ »

ـ « كثير منهم .... »

قالت مس برنكلو :

ـ « رباه .. أنا أؤمن بالدين الصحيح لكنى واسعة الأفق بحيث أقبل الديانات الأخرى . وبالطبع لا أتوقع أن يتفق الناس معى فى دير .. »

أحنى شانج رأسه وقال :

ــ « ولم لا يا مدام ؟.. هل ما دام دين واحد حقيقيًا فالأديان الأخرى زائفة ؟ »

ــ « هذا واضح .. أليس كذلك ؟ »

قال كونواى :

ــ « حسن ... دعنا لا نختلف .. لكن مس كونواى تشاركنى فضولى بصدد هذه المؤسسة .. »

رد شانج بصوت أقرب للهمس :

ــ « لو كان لى أن ألخص الأمر فأنا أقول إن عقيدتنا هى الاعتدال .. نتحاشى الإفراط فى كل شىء . حتى إننا نتحاشى الإفراط فى الفضيلة نفسها !... فى هذا الوادى يوجد عدة آلاف من أتباعنا وجدنا أن هذا يناسبهم .. وقد وجدنا أن هذه الطريقة تسعدهم . إن قومنا معتدلون فى شهواتهم .. معتدلون فى فضيلتهم . معتدلون فى تقشفهم !.. »

ابتسم كونواى ، فقد عبر الرجل ببراعة .. وقال :

ــ « أفهمك .. وأعتقد أن الرجال الذين رأيناهم اليوم من واديك »

ــ « نعم .. وأرجو ألا يكون قد صدر منهم ما يضايقك .. »

ــ « بتاتًا .. لكنى أسأل إن كان هذا الاعتدال لا ينطبق على رهبانكم ؟ »

هز شانج رأسه وقال :

ــ « يؤسفنى يا سيدى أنك اقتربت مـن نقطـة لا أستطيع مناقشتها .... »

قال مالنسون برغم حالة الحذر البادية عليه :

ــ « كل هذا جميل ، لكن علينا أن نناقش عودتنا للهند .. هل لديك حمالون يمكنهم أن يساعدونا ؟ »

ساد الصمت للحظات ثم قال شانج :

ــ « الحقيقـة يا سيدى أننى لسـت مخولاً بالإجابة ، لكنى أعرف أن الموضوع لا يصلح للمناقشة العاجلة .. »

ــ « لكن علينا أن نعود .. لدينا أعمالنا وأقاربنا .. يجب أن نتحرك غدًا .. أنا واثق من أن عندك من يرغب فى مرافقتنا وسوف ندفع لهم بسخاء .. هل لديكم خارطة كبيرة للبلد ؟.. من الواضح أن رحلتنا شاقة .. »

ـ « نعم لدينا خرائط .. »

ـ « وأنا واثق من أنكم تتصلون بالعالم الخارجى .. فأين يقع أقرب مكتب تلغراف ؟ »

لم يرد شانج .. وإن ارتسم الصبر على وجهه .

نهض شانج وتحسس جبهته وطوح المقعد خلفه وهتف :

ـ « أنا خائف .. لا أحد منكم يبغى مساعدتى .. كيف ركبتم هذه الحمامات الحديثة هنا إذن ؟ »

ترنح أكثر فأجلسه كونواى على مقعد ...

قال شانج فى رفق :

ـ « غدًا سيكون أفضل حالاً .. الهواء هنا صعب على الغرباء أولاً .. لكنك تتأقلم سريعًا .. »

بالفعل كان كونواى يشعر بدوار هو أيضًا ... وقد وجد أن الذهاب للفراش أفضل شىء ممكن .. قال للصينى :

ـ « نحن فعلاً نأمل أن تجعلنا نقابل من يستطيع أن يرجعنا للهند .. نريد هذا بأسرع وقت ممكن .. »

ضحك شانج ضحكة مفتعلة ، وهى طريقة يعرفها كونواى جيدًا عندما يحاول الصينى أن يخفى ارتباكه بالتظاهر بأن هناك دعابة .

ـ « لا تقلق . بالتأكيد سوف نعطيك إجابة قريبًا جدًا .. »

ـ « نحن فقط نطلب معلومات عن الحمالين .. »

ـ « سيدى .. لهؤلاء النـــاس بيوتهم وأسرهم .. وهم قد لا يرغبون فى أن يتركوها .. »

ـ « لكنهم كانوا ينقلونك لمكان ما صباح اليوم .. أين ؟ »

ـ « اليوم ؟.. هذا موضوع آخر تمامًا .... »

هنا خطرت الفكرة لكونواى :

ـ « إذن لم يكن الأمر مصادفة .. كنت قادمًا لمقابلتنا .. كنت تعرف أننا هناك .. وهذا يعنى أن خبر وجودنا قد وصلك فكيف تم هذا ؟ »

ســاد جو من التوتر والهدوء العــام فى القاعة .. لكن وجه الصينى فى ضوء المصابيح ظل هادئًا ثابتًا . مد يده ليجذب شريطًا حريريًّا فانفتح ستار يطل على شرفة .. واقتاد كونواى إلى الهواء البارد البلورى بالخارج وقال حالمًا :

ـ « أنت بارع .. لكنك غير محق . لهذا أطالبك ألا تقلق زملاءك بهذه المناقشات .. صدقنى لا أنت ولا هم فى خطر فى شانجرى لا .. »

ـ « لا نتكلم عن الخطر .. نتكلم عن التــأخير .. »

ـ « لابد من بعض التأخير .. لكنى راغب فى أن تظفروا بالراحة وتحبوا الإقامة هنا .. سوف تكتشفون أنه بالنسبة للراحة - وأنتم متعبون - فلن تجدوا موضعًا أفضل فى الأرض كلها .. »

كان مشهد الوادى منومًا ، خاصة مع جبــل كاراكال المطل عليه وضوء القمر . كان هناك ضوء أزرق شاحب على القمة . تساءل فى سره عن سبب الاسم فجاء صوت شانج يقول له :

ـ « كاراكال معناها (القمر الأزرق) .. »

كان كونواى يفــكر .. بدا له سلوك شانج غير موح بالثقة ، وخيل له أن معنى هذا أنه ورفاقه سجناء .. سجناء لوقت غير محدد . وكان يدرك أنه هنا يمثل الحكومة البريطانية .. لكن الوضــع بدأ يروق له .. كــان قد خاض حياة طويلة وتعلم أنه كلما وجد نفسه فى وضع غريب ، كان هذا أفضل للقضاء على الملل ..

فى الصباح سره أن وجد أصدقاءه فى حال أفضل ..تحسن مزاج الجميع حتى مالنسون نفسه ..

قالت مس بيركلو أنها بحثت فى غرفتها كثيرًا عن العيوب التى توقعت وجودها فلم تجدها .

قال مالنسون :

ـ « واضح طبعًا أننا لن نرحل اليوم .. هؤلاء القوم شرقيون فعــلاً .. يســتحيل أن ترغمهم على أداء شىء بسرعــة أو بكفاءة .. »

تجاهل كونواى التعليق . كان مالنسون قد خرج من إنجلترا منذ عام ، وهى فترة قصيرة جدًا لكنها كافية لعمل تعميمات غير صحيحة . لم يكن كونواى يشعر أن الأجناس الشرقية مماطلة .. فقط الأمريكان والبريطانيون يتعاملون مع العالم بشكل محموم ملهوف .

لكنه لا ينكر أن شانج بطيء فعلاً برغم كل شيء ..

قال :

ـ « أرى أن ننتظر ونرى ما يسفر عنه اليوم .. كان من التفاؤل الزائد أن ننتظر أن يفعلوا شيئًا ليلة أمس .. »

كان الإفطار ممتازًا وقرب نهاية الوجبة دخل شانج وانحنى بأدب ، وحيا الموجودين . تمنى كونواى لو يتكلم الرجل الصينية لكنه فضل ألا يكشف معرفته للصينية .. فليبق هذه البطاقة فى كمه ..

قال الصينى :

ـ « كما يقـول شاعركم : النـوم يعيد خياطة أكمام العناية الممزقة .. »

لم يرحب الجالسون باستعراض المعلومات هذا . وقال مالنسون :

ـ « لابد أنك تعنى شكسبير .. لا أريد أن أكون قليل التهذيب لكنى فعلاً أريد أن أبدأ البحث عن الحمالين الآن .. »

قال الصينى بعد صمت :

ـ « أخشى أنه ليس لدينا رجال يقبلون ترك بيوتهم من أجل هذه الرحلة .. »

قال بارنارد :

ـ « لكنك لم تكن واثقًا لهذا الحد ليلة أمس .. »

ـ « لم أرد أن أحبطكم .. كنتم متعبين بسبب الرحلة, ... »

قال كونواى :

ـ « ليكن .. من الواضح أننا لن نستطيع البقاء هنا للأبد .. ومن الواضح كذلك أننا لن نستطيع الرحيل من تلقاء أنفسنا .. فما رأيك ؟ »

ابتســم الصينى .. ابتسامة بـدا واضحًا أنها لكونواى وحده وقــال :

ـ « سيدى العزيز . بالنسبة لأصحابك لا إجابة لدىَّ .. لكن بالنسبة لرجل حكيم مثلك فأنا أتكلم .. كان مع أصحابك الحق عندما قالوا إننا نتفاعل مع العالم الخارجى من وقت لآخر .. التفاصيل لا تهمك حاليًا لكن لنا حاجات نحصل عليها . لهذا عندما يصل الرجال الذين يجلبون لنا الأشياء ، أتوقع أن تصلوا لاتفاق معهم .. »

ـ « متى يأتون ؟ »

ـ « من المستحيل أن نحدد هذا .. أنتم رأيتم ظروف الجبل والطقس .. هكذا لا يمكن التنبؤ بموعد قدومهم . أعتقد أن هذا سيكون بعد شهر .. لن يزيد على شهرين .. »

صرخ مالنسون :

ـ « شهران فى هذا المكان ؟.. هذا مناف للعقل !.. لا يمكن أن نتحمل أكثر من أسبوعين .. »

ضم شانج العباءة حول جسده وقال :

ـ « آسف .. لم أرد مضايقتكم .. سوف يستمر الدير فى تقديم ضيافته لكم .. »

قال مالنسون :

ـ « لا تقلق .. سوف نظفر بالحمالين الذين نريدهم .. يمكنك أن تنحنى كما تحب .. »

وضع كونواى يده على ساعده ليسكته . كان مالنسون يتصرف كطفل مستعد لأن يقول كل ما يخطر له . خاف كونواى أن يضغط هذا على أعصاب الصينى . من حسن الحظ أن شانج انسحب فى الوقت المناسب .

الفصـل الخـامس

طيلة الصباح ظل المسافرون يعانون الصدمة .. كانوا يتوقعون أن يقضـوا وقتهم فى مرح أندية بيشـاور بدلاً مـن أن يقضوا شهرين مسجونين فى دير بوذى . قال كونواى :

ـ « لا ألوم أحدًا .. لم يعـد السؤال هو ما يروق لنا وما لا يروق .. السؤال هو ما يجب أن نتحمله .. ليس فى يدنا عمل شىء سوى الانتظار .... »

كان مالنسون لا يطيق الفكرة طبعًا وراح يدخن فى عصبية.

قال كونواى :

ـ « لا أرى اختلافًا عن قضاء شهرين فى أى مكان منعزل من العالم .. الناس على غرارنا يفعلون ذلك كثيرًا .. طبعًا من له أصدقاء أو أقارب لن يحب هذا ، لكنى أعتبر نفسى محظوظًا لأنى لا أعرف شخصًا يمكن أن يقلق علىَّ .. ويمكن لأى واحد أن يمارس عملى .. »

كان يعرف أن لمالنسون حبيبة فى إنجلترا وأبوين .. هذا جعل الأمور صعبة .

بارنارد تقبل الأمر بنوع من المرح .. وقال :

ـ « لن يقلق على أحد فى الوطن .. فقد كنت طيلة حياتى كاتب خطابات رديئًا .. »

قال كونواى :

ـ « لا تنس أن أسماءنا سترد فى الصحف كمفقودين .. وسوف يفترض معارفنا الأسوأ .. »

واستدار لمس برنكلو التى ظلت صامتة حتى هذه اللحظة ، وتوقع أنها قلقة .. فقالت :

ـ « العناية الإلهية أرسلتنى هنا .. وأنا أعتبره نداء .. لا فارق بين مكان وآخر ما دمت أخدم الرب .. »

شعر كونواى برضا لأن المهمة كانت سهلة نسبيًا .. أضاف لهم :

ـ « أولاً علينا ألا نضغط على أعصاب بعض .. من حسن الحظ أن المكان واسع وغير مزدحم .... »

قال بارنارد :

ـ « من ضمن أسباب التفاؤل أننا لن نجوع .. لو كانت الوجبات كما رأينا .. هل تعرف يا كونواى . هذا المكان يلقى تمويلاً كبيرًا .. مثلاً الحمامات مكلفة جدًّا ، وفى الوقت نفسه لا أفهم من أين يكسبون المال . ترى هل يستخرجون أى معادن ثمينة ؟ »

قال مالنسون :

ـ « كل المكان لغز .. أعتقد أن لديهم جرارًا من الذهب مخبأة كما يفعل الجزويت .... »

حان موعد الغداء .. وقد كانت لحظات بهيجة فعلاً .

لما ظهر شانج أدرك أن علاقته صارت أفضل مع المنفيين الأربعة .. وقد اقترح عليهم أن يروا المزيد فى الدير . قال بارنارد فى حماس :

ـ « بالطبع .. ربما لا نرى مكانًا كهذا مرة أخرى أبدًا .. »

كانت الجولة فى الدير ممتعة .. لقد رأى كونواى مؤسسات رهبانية كثيرة ، لكن هذا الدير كان أكبرها . المشى وسط الغرف كان نوعًا من التدريب الرياضى ..

رأوا ما يكفى ليوقنوا بما استنتجوه من قبل .. صار بارنارد على يقين أن اللاما كانوا أثرياء جدًّا .. ووجدت مس برنكلو أدلة أقنعتها أنهم بلا أخلاق .. أما مالنسون فلم يحب أى شىء وأدرك أن اللاما لن يكونوا أبطاله .

فقط كونواى أسلم نفسه لافتتان متزايد .. كان الاتساق فى كل مكان .. تنعم به العين لكنه لا يستوقفها . وجد كنوزًا لا شك أن أى متحف يدفع أى شىء للحصول عليها .. السيراميك .. والنقوش التى عمرها ألف عام .. عالم من النقاء والإتقان فى السيراميك ودهان الورنيش .. هناك تواضع واضح بلا صلف .. ولا هجمة على مشاعر الرائى . كأنها بتلات زهرة جاءت للوجود فجأة ..

لم يكن من هواة المجاميع .. لكنه كان يحب الفن الصينى بشدة .. هذه الدقة وسط عالم صاخب كانت تفتنه .

كانت فى الدير مكتبة ممتازة واسعة وبها عدد هائل من الكتب . وكانت متراصة بطريقة منظمة توحى بالحكمة أكثر مما توحى بالتعلم .. توحى بالتهذيب ولا توحى بالجدية . الغريب أن كونواى وجـد على الأرفـف روائع الأدب العـالمى بالفرنسية

والألمانية والروسية وهنـاك كتـب عديدة بالصينية , ورحلات عديدة للتبت ..

هنا شعر بعينى شانج تثبتان عليه :

ــ « هل أنت دارس ؟ »

لم يستطع كونواى أن يقول نعم ، فقد بدت الكلمة كبيرة عليه وإن كانت هذه أعظم مجاملة يمكن أن يقولها لك صينى .

ــ « أستمتع بالمطالعة لكن عملى مؤخرًا شغلنى كثيرًا .. »

ناوله كونواى كتابًا وقال :

ــ « هذا كتاب يهمك ... خارطة القطر .. »

قال شانج :

ــ « لدينا آلاف الخرائط .. لكن بوسعى أن أريحك .. لن تجد شانجرى ــ لا على أى خارطة .. »

قال مالنسون فى ضيق :

ــ « مصرون على الغمـوض .. حتى اللحظـة لم أر سرًا يستحق أن تخفيه .. »

قالت مس برنكلو :

ــ « ألن تسمح لنا بأن نرى اللاما وهم يعملون ؟ »

كانت لها طريقة معينة تظهر بها أنها غير مهتمة ، وفى الوقت ذاته تظهر متضايقة .. لكن شانج قال لها :

ــ « آسف .. لا أحد خارج الدير يمكنه أن يرى أو يقابل اللاما وما ينبغى له .. »

ــ « وماذا يفعلون بالضبط ؟ »

ــ « لقد كرسوا أنفسهم للتأمل والبحث عن الحكمة يا مدام .. »

ــ « لكن هذا لا يقتضى عمل أى شىء .. »

ــ « إذن يا مدام هم لا يعملون أى شىء .. »

واقترح أن يشربوا الشاى . كان ككل صينى آخر مولعًا بشرب الشـاى بشكل منتظم . وقـد اقتادهم لقاعة فيها بيانو ضخم وأخبرهم أن اللاما يحبـون سـماع الموسيقا الغربيـة خاصة موتسارت ..

كان بارنارد يفكر فى شىء واحد :



ــ « هــل تعنى أن هــذا البيانو جــاء بنفس الطــريق الذى جئنا به ؟ »

ــ « ما من طريق آخر .. »

ــ « ولماذا لم تكتفوا بمذياع بدلاً من هذا كله ؟ »

ــ « لقد نصحنا بذلك .. ثم عرفنا أن الجبال سوف تحجب أى إرسال من بلوغ المذياع .. »

جاء الخدم بالشاى والأقداح .. ولكنهم لمحوا فتاة صينية تحمل أدوات الشاى . اتجهت إلى الهــارب وبدأت تعــزف لحنًا ريفيًا لرامو . كانت النغمــات الأولى قــد هزت كونواى فشعر بنشوة لا حد لها .. هذا المزج بين فرنسا القرن الثامن عشر مع أزهار اللوتس والنقوش الصينية .

تأمل العازفة فرأى أن لها أنفًا طويلاً رقيقًا ووجنتين عاليتين ولهــا شحوب نســل المانشو . وكان شعرها الأسود معقوصًا بحزم .. بدا فمها كفرع لبلاب صغير وردى .. وكانت صموتًا ساكنة فيما عد أناملها . انتهت المقطوعة فنهضت .

نظر شانج لكونواى وابتسم قائلاً :

ــ « أنت مسرور ؟ »

تساءل مالنسون قبل أن يرد شانج :

ــ « من هى ؟ »

ــ « اسمها لو ــ تسن .. بارعة جدًا .. لم تحصل بعد على التأهيل للاما .. »

تساءلت مس برنكلو :

ــ « تبدو لى صغيرة جدًا .. وهل لديكم نساء لاما ؟ »

ــ « لا فوارق جنسية بيننا .... »

تواصل شرب الشاى فى صمت . ثم نهض شانج وتمنى أن تكون الجولة قــد راقت لهم . وقــال لهم إن المكتبة وقاعة الموسيقا تحت تصرفهم طيلة إقامتهم هنا ..

سأله بارنارد :

ــ « هذا المكان ساحر فعــلاً .. وإننى لأتساءل عن سن هذه العازفة التى رأيناها .. »

قال شانج :

ــ « أخشى أننى لا أستطيع أن أقول .. »

ــ « أنت لا تعطى معلومات عن سن فتاة »

ابتسم شانج وقال :

ــ « بالضبط .. »

بعد العشاء خرج كونواى وحده إلى الشرفة ليرى الدير فى ضوء القمر .. رائحة الأزهار الرقيقة . فى الصين يطلقون عليها اسم (رائحة ضوء القمر) . خطر له أنه لو كان لضوء القمر صوت فلسوف يكون مقطوعة رامو التى عزفتها فتاة المانشو ..

كان يشعر براحة تامة جسديًا ونفسيًا لكن عقله كان يعمل فى جنون ..

نظر إلى الخلاء والخواء .. لابد أن عمق الهاوية كان ميلاً على الأقل .

سمع من تحت أصواتًا عالية . سمع أصوات الجونج والنفير وصوتًا يشبه النواح . خفتت الأصوات ثم تعالت ثانية .. لكن هذه الضوضاء لم تفعل سوى أن أظهرت سكون شانجرى ــ لا أكثر .

ومن نافذة فى مكان مرتفع رأى ضوء مصباح له لون ذهبى . ترى هل هناك يسهر اللاما باحثين عن التأمل والحكمة ؟ كان من السهل أن يتسلل ويمضى فى الممرات حتى يظفر بالحقيقة ، لكنه كان يعرف أنه يتوهم حريته وأن هناك من يراقبه حتمًا .

كان هناك رجـلان يمشـيان فى الشرفة .. رجلان بدا أنهما لطيفان يضعان عباءتين على الكتفين . وسمع صوت الجونج من جديد ورجلاً يقول لصاحبه :

ــ « قد دفنوا تالو .... »

كانت معلوماته بلغة التبت واهية لذا تمنى أن يقولا أكثر . بعد صمت قال أحد السائلين :

ــ « مات بالخارج .. »

ــ « لقد أطاع الكبار فى شانجرى ــ لا .. »

ــ « جاء عبر الهواء فوق الجبال يحمله طائر .. »

ــ « ومعه غرباء .. »

ــ « وادى القمر الأزرق سوف يتذكره للأبد .. »

لم يفهم حرفًا بعد ذلك .. هكذا عاد لمخدعه وقد شعر بأن مفتاحًا آخر دار فى القفل المغلق . الرحلة من باسكول كانت فى الخطة ولم تكن محاولة مجنون .. هم يعرفون الطيار وينعونه هنا .

صمم على شىء واحـد .. لا يجب أن يبلغ هـذا الاكتشاف لرفاقه الذين لن يستطيعوا أن يساعدوه فى شىء ، ولا لمضيفيه الذين بالتأكيد لن يساعدوه .

الفصل السادس

بدأ المسافرون يعتادون الإقامة هنا ، ولم يعد الأمر أكثر مللاً من رحلة سياحية لم يخطط لها كما يجب . تعلموا أن النهار دافئ والليل بارد وأن الدير معزول عن الريح ، وأن أنواعًا ممتازة من الطباق تزرع فى الوادى . وأنهم متباينون فى الذوق .

كانوا قد تعلموا الكثير من طباع بعضهم .. وكان شانج يحاول جاهدًا أن يرفه عنهم ، فكان يقترح رحلات ويوصى بكتب . وكان يقطع الصمت المرتبك أثناء الوجبات بكلمات ذكية لطيفة . كان يجيب عن بعض الأسئلة ويفلت ببراعة من بعضها .

استكشفوا المنطقة ونزلوا إلى الوادى .. كان تنقلهم يتم فى مقاعد من البامبو المجدول بينما يقتادهم الحمالون عبر الممرات المنحدرة لأسفل . لم تكن طريقة ممتازة لضعيفى الأعصاب لكن ما أن يصلوا للوادى كان كل شىء يفتنهم .

الأسـعد فيهم كان كونواى الـذى افتتن بالمكـان . لاحظ أن السكان حيثما وجدهم هـم خليط من الصينيين والتبتيين وهم

أنظف وأكثر وسامة من الجنسين . كانوا مرحين مؤدبين نشطين لكنهم لا يظهرون أى نوع من العجلة . حتى مس برنكلو التى كانت تفتش عن انحلال الوثنيين الأخلاقى لم تر أى شىء يخجلها سوى أن النسوة كن يرتدين سراويل ضيقة حول الكاحل . وكان هناك معبد لبوذا .. أخبرهم شانج أن رهبانه ليسوا تحت سلطة الدير .

بدا كذلك أن هناك معبدًا كونفوشيوسيًا وتاويًا . قال شانج :

ــ « الماسة لها عدة وجوه .. معظم الأديان فيها جانب صحيح .. »

كانت مس برنكلو تفكر فيما يمكن عمله فى هذا المكان . سوف تعود للوطن ثم ترسل بعثة تبشيرية هنا . ربما تأتى بنفسها كذلك والخطوة الأولى كما قالت هى تعلم لغتهم ، لذا طلبت من شانج أى كتب تشرح هذه اللغة.

تعامل شانج مع هذا الطلب باعتباره بالغ الأهمية . وقد جلب لها كتابًا عملاقًا كتبه خبير لغات ألمانى .. يبدو أنها كانت تتوقع كتيبًا صغيرًا على غــرار (التبتيــة بدون معلم) .. لكنها بدأت ووجدت ما يشغلها .

كونواى قضى الوقــت يدرس المكتبة ، وقــد وجــد أن ذوق الرهبان هنا أقرب للكاثوليك .. يقرءون أفلاطون ونتشه وعمر الخيام وتوماس مور .. عدد الكتب كان عشرين ألفًا تقريبًا . ولاحظ أن الكتب مستمرة حتى عام 1930 .. مما يدل على أن الدير تصله كتب بشكل منتظم . لكن الرجل كان غير مهتم بالطبعات الأخيرة ..

قل كونواى :

ــ « بدأت أفهمك يا مستر شانج .. أنت تعمل بسرعة مختلفة عن سرعتى .. الزمن معناه عندك أقل .. فى لندن لن أهتم بقراءة الجريدة التى صدرت منذ ساعة .. أنت لن تهتم بقراءة الجريدة التى صدرت منذ عام .... ».

انتهت المحادثة فجــأة وكان هذا يروق لكونواى جدًّا ... هذا أفضل مــن العكس .. المحادثات التى لا تنتهى أبدًا . بدأ يحب شانج أكثر فأكثر .. لكنه فى الوقت نفسه كان مندهشًا من أنه لا يقابل تقريبًا أحدًا سواه فى الدير .. ربما أنت لا تقابل اللاما لكن هناك آخرين .

هناك فتاة المانشو التى كان يراها فى غرفة الموسيقا .. لكنها لم تكن تتكلم الإنجليزية ، وهو ظل يخفى أنه يتكلم الصينية . كان من المستحيل معرفة ما تفكر فيه ..

كان من المستحيل كذلك تخمين عمرها . ربما كانت أقل من 13 عامًا وربما كانت أكبر من 30 عامًا ..

لم يعرف هل هى سعيدة بحياتها هنا أم لا .. كانت كأنها دمية من عاج ..

تلبس بأناقة وجميلة وتعزف الهارب ، ولا تتحرك فى الغرفة كأنها تلعب الهوكى .. فتيات قليلات جدًّا فى العالم الغربى يملكن هذه الفضائل .

كان كونواى مشهورًا بسخريته من الجنس الآخر . وقد قابل فتيات كثيرات كن سيرحبن جدًّا بالزواج منه .. لكنه لم يطلب . وقد اقترب جدًّا من طلب يد فتاة لكنها لم ترد الإقامة فى بكين ، وهو لم يرد الإقامة فى ترنبريدج .

كان شانج يملك الكثير مـن الأسرار ، وأدى فضولهم الذى لم يرتو إلى أن ينسوا كم المعلومات الرهيب الـذى يصبه .. مثلاً

كان يحكى بلا تحفظ عن العادات والأزياء لدرجة أن كلماته كانت تصلح رسالة أكاديمية .

ما هو نظام حفظ القانون هنا ؟

قال شانج إن الجريمة نادرة أصلاً .. لأن الأشياء الخطيرة فقط هى التى تعتبر جرائم . هناك ما يكفى الجميع من كل شىء .. كان الطرد من الوادى هو أعنف وأقسى عقوبة . هؤلاء القوم لم يكونوا يملكون قيم التنافس الغربية.

سأله كونواى عن التنافس على النساء .

قال شانج :

ــ « نادرًا جدًّا .. نحن لا نعتبر من الذوق أن تظفر بامرأة يريدها رجل غيرك .. »

ــ « لنفرض أن الرجل يريدها لدرجة أنه لا يبالى بكون هذا من الذوق أم لا .. »

ــ « إذن من التهذيب أن يتخلى الرجل الآخر عنها للرجل الأول .. ومن التهذيب للمرأة أن تصير لمن يريدها منهما ... »

أما عن نظام الحكم فقد قال له شانج :

ــ « نحن نؤمن أنه لكى تحكم بشكل جيد فعليك ألا تحكم أكثر من اللازم .. أما عن الانتخابات فقومنا يؤمنون أنه ليس من التهذيب أن تقول إن أحد الحزبين صائب والآخر مخطئ .. »

كان كونواى فى هذا الوقت يفكر فى بارنارد .. الأمريكى الذى بدا راضيًا متكيفًا ...

الغريب أن هذا الهدوء وهذا السكون ضغطٌ على أعصاب مالنسون . وقد تساءل فى توتر :

ــ « هل تعرف من هو هذا البارنارد حقًا ؟ »

قال كونواى :

ــ « لا شىء . أعرف أنه أمريكى وقد أقنعته بالمجىء معنا لأن الباسبور الأمريكى لن يمنع الرصاص من قتله .. »

ــ « وهل رأيت جواز سفره بهذه المناسبة ؟ »

ــ « ربما .. لكن لا أذكر .. لماذا ؟ »

ضحك مالنسون وقال :

ــ « سوف تتهمنى بأننى فضولى لا أهتم بأمورى الخاصة .. لكن الحقيقة أن بقاءنا هنا قد جعلنا بلا أسرار .... »

ــ « سأكون شاكرًا لو أوضحت لى الأمر .. »

ــ « هـذا الرجـل يسافر بجواز سفر مزيف .. وهو ليس بارنارد أصلاً .. »

رفع كونواى حاجبيه فى دهشة .. ثم تساءل :

ــ « من هو ؟ »

ــ « كالمرز بريان ! النصاب الشهير .. »

ــ « بالله عليك !.. »

ــ « لقـد أسقط حافظته اليـوم فجلبها شانج لى على أنها تخصنى .. وجدت قصاصات صحف كلها تتحدث عن بريان وبحث الشرطة عنه .. فى إحدى الصحف صورة واضحة له لكنه بشارب .. »

ــ « هل ذكرت هذا له ؟ »

ــ « لا .... »

ــ « إذن الأمر يتعلق بصورة وجدتها فى جريدة .... »

ــ « لم أقـل إن هذا دليل دامغ ، لكن لو كان هو فهذا يفسر سبب استمتاعه بالبقاء هنا .. لو كان هو بريان ...... »

ــ « يا عزيزى مالنســون .. لو كــان الرجــل نيرون نفسه فلا أهمية لهذا فى الوقت الحالى .. علينا أن نتماسك فترة بقائنا هنا .. لو شككت فيه فى باسكول لاتصلت بدلهى طلبًا للمعلومات ، لكنى الآن أعتبر نفسى خارج الخدمة .. »

ــ « إذن أنت تنصحنى بنسيان الأمر .. »

ــ « سأترك شرف القبض عليه لمن يعتقله .. لكنى أجد عسرًا فى القبض على رجل عشت معه شهرين .. »

كان كونواى يحب طريقة مالنسون المدرسية فى فهم الأمور . لو أخطأ أحدهم فمن الواجب تسليمه للعدالة فورًا . لم يكن يعرف الكثير عن القصة سوى أن مجموعة بريان العملاقة فى نيويورك أدت لخسارة مائة مليــون دولار . بشــكل ما صدر أمر باعتقال برايان ففر لأوروبا وصدرت أوامر لنصف دستة من البلدان .

قال كونواى :

ــ « أرجو أن تلزم الصمت .. ما زال هناك احتمال لا بأس به أنه ليس المطلوب على الإطلاق .. »

لكنه كان هو المطلوب فعلاً وقد اتضح هذا فى تلك الليلة بعد العشاء .

أدرك كونواى أن مالنسون عاجز تمامًا عن معاملة الأمريكى بشكل طبيعى بعد ما وجده . وكان من الواضح أن بارنارد شعر بتغير شىء ما .

فجأة أشعل الأمريكى السيجار وقال :

ــ « أظن أنكم تعرفون من أنا .. »

احمر وجه مالنسون أما كونواى فقال :

ــ « نعم يا مستر بريان .. نحن نعرف .. »

ــ « كان من الحمق أن أحمل معى هذه القصاصات .... »

ــ « كلنا نتصرف بحماقة أحيانًا .. »

لم يستطع كونواى أن يكره الرجل .. فما زال يعتبره لطيفًا .. لا يستطيع أن يعتبره أخطر نصاب فى العالم . قال بريان :

ــ « لقد فررت من الشرطة عبر العالم .. استقررت فى باسكول وشعرت بأننى فى أمان خاصة وسط الثورة .. كان الاختيار عسيرًا .. أن اظل فى باسكول وأذبح .. أو أسافر على متن طائرتكم لأجد الأصفاد حول ساعدى .. لم أحب العملين .. لكن المعجزة التى جاءت بى هنا شىء لا أستطيع أن أشكو منه .. لهذا أنا راض ومسرور .. »

كان يعتقد أن كل شيء حدث قسرًا .. لا دور له فيما حدث ولم يكن يقدر على منعه إلا لو استطاع منع الإعصار .

قال كونواى :

ــ « لن نتجادل الآن حول هذا الموضوع .. لكن يكفى أن أقول إن هناك ثلاثة يمكن أن يجدوا هدفهم وسلامهم هنا .. أنت هارب من الشرطة .. مس بيركلو تفكر فى التبشير لهؤلاء التبتيين .... »

ــ « أنت قلت ثلاثة .. »

ــ « الثالث هو أنا .. أشعر براحة هنا ولا أكره فكرة البقاء لفترة أطول .... »

وفى المساء وهو يقوم بجولته المعتادة فى الشرفة أدرك أنه يشعر براحة غير عادية . هــو بالفعل يحب شانجرى لا .. كان مكانًا مريح الأعصاب وفى الوقت ذاته يحرك الخيال . وكان قد بدأ يصل لاستنتاج بصدد الدير .. وقد شعر بأنه لو جاء الحمالون فجأة ليعيدوه للعالم الخارجى فلسوف يشعر بخيبة أمل .

فكر فيما سيحدث .. الوجوه التى لوحتها الشمس فى الهند .. حفلات السفارة .. لعب الورقة .. النساء يسألنه فى إعجاب : هل

حقًا كنت فى التبت ؟.. ثم العودة لإنجلترا .. سرد قصته عشرات المرات .. سوف يحكى القصة على مائدة العشاء لأعوام كاملة .

ثم تذكر ما قاله جوردون عن الخرطوم : أفضل أن أكون درويشًا مع المهدى على أن أذهب للعشاء كل ليلة فى لندن .

لم يشعر بقدوم شانج .. الذى قال له :

ــ « سيدى .. يسرنى أن أحمل لك أخبارًا ممتازة .. »

فكر كونواى .. إذن جــاء الحمالون قبــل الموعد من الغريب أنه كان يفكر فى ذلك .

قال شانج فى نوع من الحماسة :

ــ « أهنئك سيدى وأرى أننى مسئول .. اللاما العظيم وافق على طلبى ويرغب فى أن يراك .. »

قال كونواى :

ــ « أفهم .. لكن ما سبب توترك هذا ؟ »

ــ « لأنه غير معتاد وغير متوقع .. منذ أسبوعين لم تكن أنت معنا والآن سوف تقابله .. لا يمكن تصور هذا .. »

ــ « صدقنى كان شىء آخر يدور فى ذهنى .. متى يكون الموعد ؟ »

ــ « الآن .. لقد طلبوا منى أن آتى بك .. »

ــ « أليس وقتًا متأخرًا ؟ »

ــ « لا قيمة لهذا .. سوف تفهم أشياء كثيرة يا سيدى حالاً .. وأرجو أن تغفر لى رفضى إعطاء معلومات عدة مرات .. ويسرنى أن أعرف أن هذا لم يعد ضروريًا ... »

الفصــل السابع

حاول كونواى أن يبدو متماسكًا لكن تصرفاته أظهرت بوضوح لهفة تزداد وهو يرافق شانج عبر الممرات الخالية . وأدرك أنه على وشك اكتشاف مهم . لاحظ أن شانج يمشى به عبر غرف لم يرها من قبل . صعد به فى الدرج حتى باب دق عليه شانج .

فتح الباب خادم متحمس . وفى الداخل بدا المكان لا يقل أناقة عن باقى الدير .. كان أكثر دفئًا بشكل واضح . فى الحقيقة كانت الحــرارة تتزايد كلمــا ولجت للداخل .. حتى بلغ الدفء درجة تشعرك كأن هذا حمام تركى .

همس شانج :

ــ « اللاما العظيم سوف يستقبلك وحده .. »

وأغلق الباب . انتظر قليلاً حتى اعتادت عيناه الضوء الخافت الكئيب . ثم بدأ يرى غرفة مغطاة بستائر سوداء وسقف خفيض .. وقف هناك مترددًا . رأى على مقعــد رجلاً صغير الحجم مليئًا بالتجاعيد يبدو كأنه بورتريه قديم باهــت . شعر كونواى بدوار

تحت تحديق هاتين العينين .. لكنه كان يرى هذا الشخص يتجسد بوضوح .

همس بإنجليزية ممتازة :

ــ « أنت مستر كونواى ؟ »

كان الصوت مريحًا بشكل خاص .. رد كونواى :

ــ « أنا هو .. »

ــ « مما يسرنى أن أراك .. فكرت أنه من الخير أن نلتقى .. اجلس ولا تخش شيئًا .. »

ــ « هذا شرف لى أن أوجد هنا .. »

ــ « نظرى ضعيف لكنى أراك فى ذهنى .. أرجو أن تكون قد استرحت فى شانجرى لا .. يقول شانج إنك سألت كثيرًا عن الدير .. »

ــ « بالتأكيد أنا مهتم جدًّا .. »

ــ « سوف يكون من دواعى سرورى أن أخبرك بتفاصيل هذه المؤسسة .. »

حرك يده حركة خفيفــة جــدًّا .. لكنها استدعت الخادم حاملاً الشاى . وضع سلطانيات بها سائل شبه شفاف على صينية ، وكان كونواى قد ألف هذه الطقوس .. قال دون أن يعرف السبب :

ــ « أنا عشت فى الصين عدة أعوام .. »

ــ « لم تقل هذا لشانج ؟ »

ــ « لا .. »

ــ « إذن لماذا تخبرنى أنا ؟ »

ــ « الحقيقة أننى لا أعرف أدنى فكرة عن سبب هذا .. »

ــ « هلا ذقت هذا الشاى ؟.. نحن نحاول به أن ننافس الشاى الصينى .. »

تذوق كونواى الشــاى مــن السلطانية فوجــد المذاق رقيقًا حالمًا .

ــ « كما ترى . لدينا أعشاب ثمينة جدًّا فى الوادى .. كما ترى لابد من تذوقه ببطء .. لتظفر بأقصى درجات النشوة . هكذا تعلمنا من كو كاى تشو الذى عاش منذ 15 قرنًا .. هل درست أى عمل كلاسى صينى ؟ »

كان كونواى يعرف أنه طبقًا للتقاليد تستمر المحادثة حتى تفرغ سلطانيتا الشـاى ، ولكنـه كـان راغبًا فى معرفة تاريخ شانجرى ـ لا بدلاً من تضييع الوقت .

قال اللاما :

ـ أنت تعـرف تاريخ التبت يا كونواى العزيز .. قال شانج إنك بحثت فى المكتبة كثيرًا . فى القرن السابع عشر بدأت المسيحية تغزو آسيا مع الرهبان الجيزويت الشجعان .. وهؤلاء قد انتشروا فى مساحة هائلة . والأوروبيون لا يدركون أنه كانت هناك بعثة تبشيرية فى لهاسا نفسها .. وفى العام 1719 انطلق أربعـة مـن الرهبـان الفرنسيكان باحثين عـن آثار العقيدة المسيحية النسطورية التى اندثرت . سافروا نحو الجنوب الغربى وواجهوا كوارث يمكن لك تخيلها .. مات ثلاثة منهم فى الطريق أما الرابع فتعثر بفتحة صخرية تظل حتى اليوم هى المدخل الوحيد لوادى القمـر الأزرق . ولدهشـتـه قابل قومًا أصدقاء شغوفين بمساعدته .. لما تعافى بدأ يبشر بديانته . كان القوم بوذيين لكنهم أحبوا سماع ما يقول . كان هناك دير كبيّر قديم فى المكان .. فخطر له أن يقـوم بترميمه واستخدامه من جديد ..

وبدأ يعيش فيه . كان اسم الرجل بيروت .. وكان مولودًا فى لكسمبورج ودرس فى جامعات باريس وبولونيا ..

فى الأعوام الأولى له هنا كان يأكل من عمل يديه كأى رجل آخر ويزرع حديقته ويتعلم من كل شخص يقابله . وجد أثرًا للذهب لكنه لم يثـر انتبـاهه .. كان أكثر اهتمامًا بالأعشاب والنباتات ..

اهتم جدًا بشجرة التانجتسى التى كنا نعزو لها الكثير من المنافع الطبية ، والحقيقة أنها كانت ذات صفات مخدرة .. وهكذا صار هو نفسه مدمنًا فى الحقيقة . لم يكن زاهدًا فى الواقع بل كان يحب لذائذ الحياة لذا كان يعلم أتباعه الطبخ مثلما يعلمهم الدين . هكذا يمكنك أن ترسم فى ذهنك رجلاً مخلصًا مشغولاً متعلمًا .. هو رجل دين لكن لا مشكلة عنده من ارتداء ثياب بنّاء ، والمشاركة فى تشييد هذه الغرف . جزء كبير من دوافعه كان الكبرياء ... كان يؤمن أنه لو استطاع جواتاما أن يجعل الناس يبنون معبدًا بوذيًا فى شانجرى ـ لا فإن روما قادرة على ذلك.

مع الوقـت بدأ الحماس ينضـب .. لعله السن ولعله ابتعاد رؤسائه عنـه . كان القـوم فى الـوادى منبهرين به ولربما

يقدسونه مع الوقت . كــان يرسل تقــارير لأساقفة بكين .. لكن المراسلات انقطعت ومات رسل كثيرون فى أهــوال الرحلة . لذا لم يعد راغبًا فى المخــاطرة بحياتهم أكثر . لكن لابــد أن بعض خطاباته بلغت وجهتها ..

بعض الخطابات كان يستغرق 15 عامًا فى الوصول .

هكذا ظل بيروت فى شانجرى ــ لا ، ليس لتحدى مــن هم أعلى منه ولكن لأنه كان عاجزًا عن تنفيذ أوامرهم نهائيًّا . وعلى كل حال كان قد صار مسنًّا فى التسعين من العمر الآن . كان سعيدًا وكان القوم يحبونه ، حتى إنه لم يهتم كثيرًا بأنهم عادوا ببطء لعقيدتهم القديمة . وكان يحلم بكتابة كتاب يهاجم البوذية على أســاس المسيحية . الحقيقــة أنه أنهى هذا الكتاب فعلاً .. إنه لدينا . لكنه كتاب وديع مسالم جدًّا لأنه كتبه فى نهاية العمر عندما تزول أى بغضاء أو عداوة .

كان الآن يدنو فى سلام من نهاية العمر ، وكان أهل الوادى يمدونه بالطعام والثياب . ظــل عقله سليمًا وانغمس فى دراسة ممارسات صوفية هندية يطلقون عليها اليوجا . وفى نهاية عام 1789 نزلت إلى الوادى أخبار تقول إن بيروت يموت .

رقد فى غرفته وراح يرمق من النافذة ذلك البياض الذى يشكله جبل كاراكال ، وكان نظره قد وهن جدًّا لكنه كان يراه بقلبه كذلك . لقد انتظر النهاية راضيًا سعيدًا . لكن لم يحدث هذا ..

مرت أسابيع وهو لا يتكلم أو يتحرك .. ثم بدأ يفيق . وكان اليوم فى سن 108...

ساد الصمت طويلاً .. ثم عاد اللاما العظيم يقول :

ــ مثل من ظلوا طويلاً على حافة الموت ، كان لدى بيروت ما يحمله معه للعالم الخارجى عندما عاد .. وبدلاً من النقاهة البطيئة غرق فى نشاطات محمومة ، مع الانغماس فى تعاطى المهدئات . لا أعرف السر ولا أعتقد أن لهذا دورًا فى تحدى الموت . لكن المؤكد أنه لما مات آخر الرهبان ، كان بيروت حيًّا . وكان سكان الوادى يتبركون بهذا المعبد والرجل .. وكان من المعتاد أن تجلب هدية معك وتصعد إلى شانجرى لا .

مع القرن الجديد تزايدت الأسطورة وقيل إن بيروت صار إلهًا ويقوم بمعجزات . وقيل إنه يصعد لقمة كاراكال حاملاً شمعة دعنى أؤكد لك أنه لم يصعد أى إنسان هناك قط ..

قيل إنه يجيد فن الاسترفاع .. أى أن يطفو بنفسه لأعلى . الحقيقة أنه قام بتجارب عديدة فاشلة .. لكنه استطاع أن يملك موهبة فى التخاطر .. ولم يزعم أنه معالج روحانى لكن وجوده كان يمنح نوعًا من القوة الشافية للناس .

كان قد أدرك أنه لم يمت فى الوقت المناسب .. وهذا جعله يشعر بأنه لا ضرورة للتخطيط للغد . ذاكرته ظلت مذهلة وبدا أنه قادر على تعلم أى شىء .. وعندنا ترجمة ممتازة قام بها من الإنجليزية للغة التبت . قد يبدو لك هذا جهدًا بلا طائل .. لكن بيروت كان قد بلغ سنًا لابد معها أن يشغل نفسه .

كان العام 1804 ذا أهمية بالغة لنا ، لأنه شهد قدوم غريب ثان من أوروبا إلى وادى القمر . كان نمساويًا اسمه هنشل حارب نابليون فى إيطاليا . كان شابًا نبيلاً عظيمًا ..

كانت الحرب قد بددت ثروته ومضى يجوب روسيا وآسيا ..

بلغ الوادى الرحب .. لكن الفارق بدا واضحًا .. كان بيروت يدرس ويعظ ، بينما اهتم هنشل بالذهب . كان يريد استخراج أكبر كمية من الذهب ثم العودة لأوروبا .. لكنه لم يعد ..

حدث شىء نعتبـره غريبًا برغم أنه ليس كذلك البتة . أغراه الوادى بسلامه وبعـده عن مشاكل العالم فأخر رحيله .. وفى يوم تسلق إلى شانجرى ـ لا وقابل بيروت .

اللقاء كان تاريخيًا . كان بيروت قد صار بعيدًا عن العواطف البشرية مثل الصداقة والحب ، لكنه كان صافى القلب بطريقة أثرت فى الفتى .. كأنه الماء يصب على التربة . نشأت علاقة بين الرجلين .. أحدهما يعطى كل معرفته والآخر يعطى كل إخلاصه ..

هنشل هو الذى زودنا بالتحف الصينية وأدوات الموسيقا ومعظم الكتب . وهو الذى طور النظام المعقد الذى نحصل به على احتياجاتنا من خارج الدير . وكان حذرًا جدًا حتى لا يندفع نحونا الباحثون عن الذهب .. طور طريقة للحراسة ثم عدل عنها ..

ـ « كيف ؟ »

ـ استبعد أن يهاجمنا جيش لأن طبيعة المكان الجغرافية لا تسمح بهذا .. الخطر هو قدوم الضالين الذين لا يشكلون خطرًا فى ذاته ..

هكذا سمح للغـرباء بالمجىء بشرط واحـد .. كان التبتيون يأتون ومعهـم الصينيون .. كنـا نستضيفهم فى الدير كحيوانات

متعبة .. جاءنا روس وألمان وبريطانيون .. كلهم كانوا فى أسوأ حال يتجمدون ويوشكون على الموت جوعًا . كانت السياسة تقضى بلقاء الغرباء لو دنوا منا وتجاوزوا نقطة معينة .

« كان شانجرى ـ لا يكتسب الآن صفاته الحالية .. كما قلت كان هنشل ذكيًا بارعًا .. ومن حسن الحظ أنه أنهى كل شىء قبل أن يموت .. »

ـ « هل مات ؟ »

ـ « نعم .. فجأة .. فى سنة الثورة الهندية الخاصة بكم .. هناك فنان رسمه ساعتها ويمكن أن أريك هذا الرسم .. »

وعرض على كونواى صورة دقيقة رسمت بعناية لهنشل .. وجه دقيق الملامح جميل .. يمكن أن يكـــون وجه أنثى . نظر كونواى للصـــورة غيـــر مدرك لما يثير دهشته فيها . ثم فطن للأمر .. هذا وجه شاب .

ـ « قلت إنه رسم قبل موته بالضبط .. »

ـ « نعم .. »

ـ « قلت إنه جاء الدير عام 1803 وهو شاب .. »

ـ « نعم .. ومات .. قتله مستكشف بريطانى .. مشاجرة على بعض الحمالين .. كما أنه أطلعه على الشرط الخاص بنا والذى أحسبك شغوفًا بأن تعرفه ..... »

ـ « أعتقد أن بوسعى أن أخمن شيئًا .. »

ـ « هلم .. »

ـ « يبدو هذا مذهلاً وغريبًا وغير قابل للتصديق ..... »

ـ « وما هو يا عزيزى ؟ »

قال كونواى وهو يرتجف ولا يخفى ذلك :

ـ « خمنت أنك أنت الأب بيروت !.. ما زلت حيًا !.. »



الفصل الثـامن

ساد الصمت . قطعه طلب اللاما لمشروب جديد . لم يندهش كونواى لأن الرجل أرهق طبعًا من كثرة الكلام . هذا الصمت أفاد الموقف كثيرًا لأنه لعـب دور استراحة الأوبرا بين مقطوعتين موسيقيتين .

يبدو أن التخاطر كان حقيقة ــ ما لم تكن صدفة عجيبة ــ لأن اللاما بدأ الكلام عن الموسيقا ، وقد أبدى كونواى دهشته لأن الدير به مجموعة كاملة من المؤلفين الأوروبيين .

ــ « سوف يدهشك أن تقابل عازفًا بارعًا فى المجموعة .. كان تلميذًا لشوبان ولابد أن تقابله .. »

دارت المحادثة حتى انتهت سلاطين الشاى .. هنا عادت المحادثة لما سبق وقال اللاما :

ــ « أنت خمنت ببراعة يا بنى .. »

ــ « بعبارة أخرى .. يجب أن نظل هنا للأبد »

ــ « ربما كان علىَّ أن أجد لفظًا أفضل . وأقول إننا باقون حتى يقضى الله أمرًا .. »

ــ « ولماذا نحن ؟ »

قال اللاما :

ــ « تلكم قصـة طويلة .. كنـا دومًا نسعى لضم جنسيات مختلفة وأعمار مختلفة .. آخر من زارنا كان يابانيًا جاء عام 1912م .. لم يستفد قط من وجوده هنا .. بعض الناس لا تتغير حياتهم معنا على الإطلاق .. على كل حـال وجدنا أن التبتيين بسـبب مشاكل الارتفـاع وعوامل أخـرى حساسون جدًا .. ولا أتوقع أن يتجاوز أكثرهم مائة عـام . الصينيون أفضل لكننا لا ننجح معهم كثيـرًا . أفضـل النـاس هم أجناس أوروبا .. الشمالية بالذات . على كل حال نحن لم نستقبل أى قادمين لمدة 20 سنة وبدأت وفيات .. لذا صار الوضع عسيرًا ..

« جاء وقت اقترح فيـه أحـد زملائنا وهو شخص موثوق فيه .. اقترح أن يسافر لبلد قريب ويجلب لنا أشخاصًا جددًا بطريقة جديدة .. فوافقنا بصعوبة ... »

ــ « هل تعنى أنكم أرسلتم ذلك الذى خطفنا بالطائرة ؟ »

ــ « كان رجلاً موهوبًا وكنا نثق به .. كل ما نعرفه هو أن أول جزء من خطته تضمن التدريب فى مدرسة أمريكية للطيران .. »

هز كونواى كتفيه وقال :

ــ « وما هدف هذا كله ؟ »

ضحك اللاما وقال :

ــ « يا بنى .. اهتمامك واضــح الإخلاص وهــذا يدفعنى أن أخبرك بأشياء .. وهذه الأشياء لن يعرفها رفقاؤك الثلاثة . أنت صغير السن وحياتك أمامك .. قضيت أول ربع قرن فى حياتك تحت سحابة أنك صغير السن بالنسبة للأشياء . الربع الأخير سوف تكون تحت سحابة أنك صرت أكبر سنًا من استيعاب الأشياء . وبين هذين الربعين تضىء حياتك أشعة شمس عابرة . سوف تقضى مثل هنشل فترة شباب طويلة مثمرة ، لكنك فى النهاية سوف تشيخ .. لكن هذا سيتم ببطء .. فى سن الثمانين سيظل بوسعك تسلق الجبل كشاب . لكن لابد للمعجزة أن تزول مع الوقت .. نحقق هذا بطرق سهلة علينا مستحيلة على الآخرين .. لكن لا يساورنك شك أن النهاية قادمة مهما تأخرت .. »

قال كونواى :

ــ « الحقيقة إننى بلا أسرة .. غير متزوج وبلا طموحات ... »

ــ « إذن لم تكن تضع روحك فى عملك »

ــ « لا روحى ولا قلبى ولا نصــف طاقاتى .. إننى أميــل للكسل ... »

ازدادت تجاعيد الوجه فخمن كونواى أن الرجل فى الغالب يبتسم .

قال اللاما :

ــ « لابد أن شانج شرح لك أسلوبنا فى الاعتدال .. من ضمن هذا الاعتدال اعتدال فى النشاط .. أنا أجيد 8 لغات وكان بوسعى أن أجعلها عشرين لو عملت بشكل متواصل لكنى لم أفعل . لهذا نحن لسنا كسولين ولا نشطين .. حتى فى الطعام لا نتعلم الاعتدال إلا فى سن يؤذينا فيها الإفراط .. لا أنكر أن فيك مزية لم أرها فى أى شخص يصل هنا .. صفاء مخ غير معتاد فيمن يقل عمره عن قــرن . إن هــذه الصفة التى تميزك يمكن أن نسميها الافتقار للعواطف .. »

قال كونواى :

ـ « لو كان لك أن تصنف الرجال الذين يأتون هنا فبوسعك أن تصنفنى 1914ـ1918(*).. هذا يجعلنى عينة فريدة فى المتحف . لقد استعملت كل عواطفى وطاقتى فى تلك*الأعوام وكل ما أريده من العالم اليوم هو أن يتركنى وشأنى . وقد راق لى هذا المكان بسبب الهدوء والسلام .. »

ـ « أنت بارع كما قال لى شانج .. أنت بارع جدًا .... »

ساد الصمت لبعض الوقت ثم أضاف كونواى :

ـ « يؤسفنى بالطبع أن أفارق شانجرى لا غدًا أو الأسبوع القادم أو العام القادم .. لكن يسهل علىَّ تخيل ما سوف أشعر به لو عشت حتى المائة فى شانجرى ـ لا .. أعتقد أن طول العمر خال من المعنى .. ما زلت أبحث عن أسباب قوية تدفعنى إلى أن أحسد ابن المائة عام .. »

ـ « هناك سبب وهو سبب مهم .. نحن لا نطيع نزوة معينة .. نحن حالمون ولدينـا رؤية ... هكذا حلم بيروت وهـو يكـاد يموت فى غرفته وحيدًا عـام 1789 .. فـكر فى أن الأشياء الجميلة فى الحيـاة لا تدوم .. سرعـان ما تقضى عليها الحرب

(*) يقصد الحرب العالمية الأولى .

والصراعات .. رأى الدول تتعاظم وتتضخم فى قوتها السوقية وقدرتها على التدمير . سـوف يمضى الوقـت وتصير كل كل لوحة وكل كتاب وكل شىء جميل أو ثمين فى خطر .. هذه الرؤى حقيقية وقادمة .. لهذا أنت هنا وأنا هنا .. هناك فرصة فى أن ننجو .... »

ـ « وأنت تعتقد أن شانجرى ـ لا سوف تفلت »

ـ « ربما .. لن نأمل فى أن يرحمونا ، لكننا نأمل فى أن ينسونا .. سوف نظل هنا مع كتبنا وموسيقانا وتأملاتنا باحثين عن الحكمة .. إن لدينا تراثًا من الحكمة .. فلننعم به .. »

ـ « وعندها ؟ »

ـ « عندها يا بنى قد يرث الضعفاء الأرض .. »

شعر كونواى بالعالم يحتشد بالظلام فى الخارج . كأن هناك عاصفة قادمة . ثم لاحظ أن اللاما العظيم ينهض من مقعده ويقف كأنه شبح .. بدافع خفى كاد ينهض ليساعد الرجل ، لكنه فجأة وجد نفسه يفعل ما لم يفعله مع أى رجل من قبل .. يركع على ركبتيه ولا يعرف كيف .

لا يعرف كيف رحل . كان فى حلم لم يفق منه لفترة طويلة .

بدا له الوادى يمتد ساحرًا يتسق مع السلام الذى يغلف أفكاره . لقد تجاوز حدود الدهشة وقد أفرغته المحادثة من أى انفعال أو كلام يقال . لم تعد الشكوك تضايقه ..

كان الوقت متأخرًا ، وسره أن الآخرين آووا لفراشهم منذ فترة .

الفصــل التــاسع

فى الصباح حاول أن يسترجع كل هذه الخواطر .

عندما ظهر على مائدة الإفطار انهالت عليه الأسئلة . الكل يريد معرفة ما تم وما قاله كونواى ، لكن لم يكن عنده ما يقوله سوى أن اللاما رجل مسن جدًا يتكلم إنجليزية ممتازة .

تلقى كلمات خشنة خاصة من مالنسون الذى ظن أنه فتح موضوع الحمالين . الحقيقة أن الشاب قد صدم فيه فعلاً... لقد رأى الشاب فى باسكول الكثير من الكابتن الوسيم الرياضى وتوقع منه الكثير .. الآن يسقط هذا الصنم . لكن كان الادعاء مستحيلاً .. ثمة شىء فى جو (شانجرى – لا) يجعل الادعاء مستحيلاً .

قال مالنسون :

– « كنت فى باسكول أفهم ما يدور حولى .. بينما هنا أنا غارق فى الغموض .. هناك كان الكثير من القتل والاغتصاب

لكنى كنت أفهم الأمور .. هنا لا أفهم أى شىء .. مثلاً هل فهمت من أين جاءت الفتاة الصينية ؟ »

ـ « وما أهمية ذلك ؟ »

ـ « هل تجد من الطبيعى أن تعيش فتاة وحدها مع كل هؤلاء الرهبان ؟ »

وساد صمت .. لم يكن كونواى قد فكر فى الأمر بهذه الطريقة طبعًا . إن قصة حياة لوتسن خارج الموضوع تمامًا بالنسبة لكونواى .

ما إن ذكر اسم الفتاة الصينية حتى رفعت مس برنكلو رأسها من كتـاب الأجرومية التبتى الـذى تدرس فيه حتى على مائدة الإفطار (كأن حياتها ليست ممتدة كلها لقراءة هذا الكتاب) . تذكرت المعابد الهندية التى تمارس فيها الرذيلة ... فقالت :

ـ « بالتأكيد الأخلاق فى هذا المكان مرعبة .. علينا أن نتوقع هذا .. »

كانت هناك مشادة .. لكن كونواى ظـل يراقب المشهد شاعرًا أن هؤلاء مجرد ممثلين يقفـون على خشـبة مسرح ، هو فقط يراها ويعرف أبعادها . وشعر بأنه يريد أن يكون وحده .

يجب أن يعيش بشخصيتين .. عندما يكون مع رفاقه سيحلم بقدوم الحمالين والعودة للهند .. لكن الأفق يرتفع كستار مسرح والزمن يتمدد ولفظة الوادى الأزرق لها رمزية مهمة . وتذكر شعوره وقـت الحـرب عنـدما كانت القنابل تنهال عليه .. كان يخيل له أن له أكثر من حياة .. حياة واحدة فقط هى التى سوف يفتك بها الموت .

كان اليوم يتكلم مع شانج بلا تحفظات . قال له شانج إنه لن يخضع لأى نظام فى أول خمس سنوات من حياته .. هذا كى يتعود جسمه التكيف مع الارتفاع العالى وللخلاص من الشعور بالندم .

بعد خمس السنوات تبـدأ عمليـة تأخيـر الشيخوخة .. ولو نجحت فهذا يعنى أن يكسـب كونواى نصف قـرن عند سن الأربعين .. سوف يتوقف عن الشيخوخة منذ تلك اللحظة .

ـ « وكيف الحال معك ؟ »

قال شانج :

ـ « سيدى .. كان من حظى أننى جئت وأنا صغير .. كنت فى الثانية والعشرين .. كنت جنديًا عام 1855 وكنت أقوم بمهمة

استطلاع ، ضعنا فى الجبـال .. ولم يبق مـن رجـالى المائة سوى سبعة . وعندما جاءوا بى لشانجرى ـ لا كنت على وشك الموت .... »

أجرى كونواى الحساب :

ـ « إذن أنت فى السابعة والتسعين .. »

ـ « نعم .. وسوف يصير الترقى من حقى لو سمح اللاما .. »

ـ « لابد من رقم مستدير إذن »

ـ « لا ... لكـن اللاما يعتبرون القـرن هـو وقـت ممتاز كى تزول المطامع والشهوات الشخصية .... »

ـ « أهنئك .. يبدو أنك ظفرت بشباب طويل حافل وشيخوخة طويلة أمامك .. متى بدأت تشيخ فى ملامحك »

ـ « فى سن السبعين .. هكذا يحدث دومًا .. »

ـ « وماذا لو غادرت الوادى الآن ؟ »

ـ « أموت خلال أيام !.. »

ـ « إذن هو الطقس »

ـ « هناك وادى قمر أزرق واحد فقط .. ومن يطلبون واديًا آخر يطلبون الكثير من الطبيعة . كان هناك رجل روسى جاء إلى الوادى وعاش مثلنا وفى الثمانين كان يبدو فى الأربعين .. لابد أنه غادرنا أقل من أسبوع فقط .. للأسف اعتقله بعض البدو من القبائل وأخذوه بعيدًا , حسبناه ضل الطريق .. بعد ثلاثة أشهر عاد لنا بعد ما هرب .. لكنه صار رجلاً آخر .. ظهر كل عام فى وجهه وحركته .. مات بعدها كرجل شيخ .. »

كان كونواى يصغى وينظر من نافذة إلى الممر الذى جاء بهم هنا .

قال بعد صمت :

ـ « قصة محزنة يا شانج .. تشعرك أن الزمن وحش متربص ينتظر خارج الوادى لينقض على الفارين (الصيّع) .. »

قال شانج فى دهشة :

ـ « (صيّع) ؟ »

كان يجيد الإنجليزية لكن بعض التعبيرات العامية كانت تفلت منه .

قال كونواى :



ــ « معناها الكسول الذى لا نفع منه .. لم أقصد هذا حرفيًا .. »

قال شانج مفكرًا وقد سره أن يكسب كلمة جديدة :

ــ « من المثير أن الإنجليز يعتبرون التراخى والكسل رذيلة .. نحن نفضل هذا على التوتر .... »

فى الأيام التالية قابل كونواى رفاقًا آخرين لكنه لم يلق أى لاما آخر .

قابل رجالاً بلغوا ثلاثة أضعاف عمره وكانت مقابلات ناجحة جـدًا .

مثلاً قابل ذلك الرجل الذى تكلم عنه اللاما .. اسمه ألفونس برياك وهو فرنسى ضئيل الحجم يقول إنه كان تلميذ شوبان . قابل كذلك رجلاً من أصل ألمانى .

لاحظ أن هؤلاء القوم يذكرون جيدًا حياتهم قبل الدير .. بل إن أحد الرجال راح يحكى له عن حياته مع أسرة برونتى الكاتبة البريطانية الشهيرة ..

مهما كان الماضى فهو يعرف أنه يحب الحاضر ..

كان يعشق الغمـوض الساحر المخيم على المكان .. يصغى لعزف لوتسن الجميل ويتسـاءل عن تلك البسـمة الرقيقة التى تتلاعب على شفتها فتجعلها كأنها زهرة لوتس .

سأل شانج عن قصتها ذات مرة فقال له إنها من أسرة مانشو ملكية :

ــ « خطبها أميـر من تركستان وسافرت لكاشجار لتقابله عندما ضل الحمالون الطريق فى الجبال .. مات الكل لكنها وصلت لديرنا .. »

ــ « متى كان هذا ؟ »

ــ « عام 1884م كانت فى الثامنة عشرة .. »

انحنى شانج وقال :

ــ « كما ترى .. نحقق نتائج ممتازة معها .... »

ــ « وماذا فعلت عندما جاءت هنا ؟ »

ــ « كانت ترفض عالمنا .. لكننا كنا نعرف ظروفها كفتاة كانت فى الطريق للزواج وتغيرت حياتها بالكامل .. وقد حرصنا

على أن تكـون سـعيدة .. أخشى أن ملـذات الحب لا تزول بسهولة .. كانت متعلقة بالرجل الذى تزوجته جدًا .. »

— « ليس بالضبط .. فهى لم تره قط من قبل .. إن فرحتها بالزواج لم تكن تخص شخصًا بعينه .. »

ابتسم كونواى وهو يفكر برقـة فى لوتسن .. كيف كانت منذ نصف قـرن ، بينمـا الحمالون يقتادون مقعدها عبر المنحدرات الوعرة ، ونظرة الرعب فى عينيها ..

هذه القصة جعلته يراها فى ضوء أجمل ... كأنها مزهرية نفيسة ثمينة منسية ..

كما أنه أحـب برياك وعزفه لشوبان .. كـان الفرنسى يجيد عزف مقطوعات لم يسمعها من قبل . وقد حاول أن يدونها حتى لا ينساها .

قال شانج :

— « برياك لم يتلق بعـد كلامًا .. لذا ما زالت الذكريات الدنيوية مثل شوبان تلاحقه .. بينما اللاما الأكبر سنًا يقضون وقتهم فى التأمل .... »

للمرة الثانية منذ جاء إلى الدير تلقى كونواى استدعاء للقاء اللاما الأكبر ..

قال له شانج إن اللاما الأكبر لا يغادر غرفته أبدًا وإن الحرارة العالية مهمة جدًا لسلامة جسده . هذه المرة لم يندهش شانج من الحر .. وانحنى محييًا بمجرد أن رأى علامة حياة فى العينين الغائرتين .

تبادلا التحية المعتادة وأجاب بأدب عن بعض الأسئلة . قال إنه كون صداقات ووجد الحياة جميلة هنا .

— « وهل أخفيت السر عن أصدقائك الثلاثة ؟ »

— « نعم .. حتى اللحظـة . هـذا أربكنى نوعًا لكن ليس كارتباكى لو تكلمت .. »

— « يقول شانج إن اثنين من رفاقك سوف يسببان المتاعب لو عرفا .. »

— « أعتقد ذلك .. »

— « والثالث ؟ »

— « مالنسون متحمس للعودة جدًا »

ـ « هل تحبه ؟ »

ـ « أحبه جدًا .. »

هنا وصل الشاى فصار الكلام أقل جدية أثناء احتساء السائل العطر . سأله اللاما عما إذا كان هناك شىء مثل شانجرى ـ لا فى أكسفورد فقال :

ـ « حسن .. بصراحة المكان يذكرنى بأكسفورد حيث كنت أحاضر .. أكبر الدارسين هناك ليس كبير السن .. لكنهم مسنون بشكل ما ، ودراستهم غير عملية على الإطلاق .. فقط ليست الطبيعة بهذا الجمال هناك .. »

قال اللاما الكبير :

ـ « أنت تتمتع بروح دعابة قوية يا عزيزى كونواى .. ولسوف تسعدنا فى الأعوام القادمة .. »

الفصل العاشر

تكررت لقاءات كونواى مع اللاما ..

الحقيقة أن كونواى اعتاد الموقف فلم يفطن إلى أن هذه معجزة حقيقية . اللاما لا يقابل الأشخاص الذين لم يمضوا خمس سنوات فى الدير .. وقد رأى شانج أن هذا دليل آخر على اعتدال الدير .. اعتدال فى الالتزام بالقواعد ..

فى أحد اللقاءات قال له اللاما :

ـ « عزيزى كونواى .. أنت أصغر منى بمراحل .. لكنك تملك الكثير من الحكمة بالتأكيد فلابد أن شيئًا غير معتاد حدث لك فى الماضى .. »

ابتسم كونواى وقال :

ـ « ليس أكثر غرابة مما حدث لأى شخص من جيلى .. »

ـ « لم أر مثلك من قبل .. »

ــ « الجزء الذى يبدو مسنًا بالنسبة لك قد أنهكته صراعات قديمة .. كانت حيـــاتى منـــذ سن 19 إلى 22 معاناة مستمرة تعلمت فيها الكثير .. »

ــ « كنت تعسًا فى الحرب »

ــ « ليس بالضبط .. كنت مستشارًا ذا ميول انتحارية .. قتلت كثيرين جدًا .. ربما كـــان اضمحلال العواطف هـــو أول طريق الحكمة .. »

ــ « هذه يا بنى عقيدة شانجرى ــ لا .. »

ــ « أعرف .. هذا يشعرنى بألفة غريبة .. »

لم يكن يكذب .. خـــلال الأيام التالية شعر بسلام غريب يمزج بين روحه وجسده .. لقج وقع فى ذات المصيدة التى وقع فيها بيروت وهنشل .. نفس التعويذة . لقد اختطفه القمر الأزرق ولم يعد يقدر على الفرار.

منظر الجبال تلتمع فى الضوء الأزرق النقى ثم تنحدر نحو الوادى المعشوشب الأخضر . ثم سمع بعدها صوت أنغام الهارب عبر بركة اللوتس .. فشعر أن هذا امتزاج الصوت والمنظر ..

كان يعرف أنه واقع فى حب فتاة المانشو . لم يطلب من حبه أى شىء ولا حتى الإجابة ..

كانت رمزًا لكل شىء هش ورقيق . لمسة أناملها على الأوتار كانت تشعره بشعور حميم مرض . أحيانًا كان يخاطبها محاولاً أن يصل معها لمحادثة أقل رسمية .. لكن ردودها لم تكن تنقل أى شىء من خواطرها وأفكارها.

كان يعرف أن معه جوهرة مهمة هى الوقت .. لديه وقت كاف لكل شىء يريده . يمكنه إنجاز أى شىء ويظل هناك لوقت طويل جـــدًا ..

لكنه كان يدخل العالم الآخر ليقابل نفاد صبر مالنسون وعزيمة مس برنكلو . وقدر أنه سيكون سعيدًا لو استطاع أن يخبرهم بما يعرفه ..

وقد قال له بارنارد ذات مرة :

ــ « هل تعرف ؟.. هذا عالم ظريف للحياة فيه .. سوف أفتقد الصحف والسينما لكن يمكن اعتياد كل شىء مع الوقت .. »

عرف أن شانج أخذ بارنارد للوادى بناء على طلبه للترفيه . كان بحاجة للخمر والنساء بشدة .. مالنسون سمع بهذا وبدا مشمئزًا وقال :

ــ « بدأت تعبث .. هذا ليس من شأنى بالطبع لكن يجب أن تحتفظ بلياقتك . الحمالون قد يصلون فى أى وقت ولن تكون رحلة العودة نزهة .. »

قال بارنارد :

ــ « أنا فى خير حالاتى .. لم أكن أكثر لياقة قط .. أتدرب يوميًا .. أنت تعرف أن الاعتدال سياسة هؤلاء القوم .. »

ثم أضاف :

ــ « كنت قد نويت شيئًا .. سوف أفوت هذه المرة إذا جاء الحمالون .. سوف أنتظر المرة القادمة أو المرة التى بعدها إذا ما وافق الرهبان هنا على إطالة فندقتهم لى .. »

ــ « تعنى أنك لن تأتى معنا ؟ »

ــ « نعـم .. قـررت البقـاء فتـرة أطـول .. أنـت سـوف يتـم استقبالك فى الوطـن بالموسـيقا . بينمـا أنا سـوف تكـون هناك فرقة شرطة فى استقبالى .. لا .. لا أفضل العـودة .. »

قال مالنسون فى ازدراء :

ــ « الأمر لك على كل حال .. لا أحد يمكنه منعك من قضاء حياتك هنا لو أردت .. لكننى لا أعتقد أن هذه رغبة الجميع .. ما رأيك يا كونواى ؟ »

قال كونواى :

ــ « موافق .. الأفكار تتباين .. »

قالت مس بيركلو :

ــ « بصراحة .. أعتقد أننى سأبقى بدورى .. »

ــ « ماذا ؟ »

قالت بابتسامة بدت أنها ملتصقة بوجهها :

ــ « فكرت فى الطريقة التى جئنا بها هنا .. ووصلت لاقتناع . هناك قوة غامضة تتحكم فينا .. العناية الإلهية أرسلتنى هنا وسوف أبقى .. »

قال مالنسون :

ــ « هل تعنين أنك تريدين بدء بعثة تبشيرية هنا ؟ »

ــ « لا أريد بل أنوى بقوة .. أعرف كيف أتعامل مع هؤلاء القوم .. لا خوف ... أنا لا أؤمن بمبدأ الاعتدال الذى يتكلمون عنه .. اعتبره نوعًا من التراخى .. ما يطلقون عليه سعة صدر هى الشىء الذى أنوى أن أحاربه .... »

قال كونواى ضاحكًا :

ــ « لكن سعة صدرهم هى الشىء الذى سيجعلهم يتركونك .. »

لما انفرد مالنسون مع كونواى قال له :

ــ « هذا الرجل بارنارد يدمر أعصابى .. لا أتحمله .. لست نادمًا على تركه لدى عودتنا .. لكنى فعلاً أحب تلك الفتاة الصينية ، ولو كان بوسعى أن أتكلم الصينية مثلك لأوقعتها فى حبى .. »

قال كونواى :

ــ « لا تعتمد على هذا .. هى لا تتبسط فى الحديث أبدًا .. لكن أرى ألا تقلق عليها .. إنها سعيدة فعلاً .. »

كان كونواى يعرف جيدًا أن مالنسون لن يرحل ..

كان قلقًا عما سيفعله الفتى عندما يكتشف ذلك . ولكن شانج كان مطمئنًا وقال له إن مالنسون سيعتاد الأمر بعد عشرين سنة . بدا هذا لكونواى فلسفيًا أكثر مما يتحمل الأمر ..

قــال :

ــ « سوف يجن جنونه عندما لا يأتى الحمالون .. »

قال شانج :

ــ « بالعكس .. الحمالون قادمون .. »

ــ « لقد تخيلت أنها مجرد أكذوبة سارة .. »

ــ « البتة .. أنت تعرف منهج الاعتدال .. فى شانجرى لا نحــن صادقون بشــكل معتدل .. نحن بالفعل ننتظر هؤلاء القــوم .... »

ـ « لن تستطيع إذن منع مالنسون من السفر .. »

ـ « لا .. سوف تكتشف أن الحمالين يرفضون أن يأخذوا أى شخص معهم .. سوف يصاب بإحباط شديد ثم يبدأ يأمل فى أن يلحق بالحمالين فى المرة القادمة .. بعد تسعة أشهر .. »

قال كونواى :

ـ « أعتقد أنه سيحاول الفرار وحده .. »

ـ « فرار ؟.. هــذه كلمة غير موفقة .. لا توجد بوابات ولا حراسة .. فقــط تلك التى صنعتها الطبيعة .. كل من يحاول الفرار يعود بعد قضاء ليلة فى الوادى .. »

فى مرة أخرى سأله كونواى عن الحب ..

ـ « أعتقد أنه غير وارد فى حياتكم هنا .. »

قال شانج :

ـ « بالطبع هو وارد . طبعاً اللاما صاروا محصنين ضد هذه المشاعر ، لكنهــا واردة للأشخاص الأصغر الذين لم ينضجوا بعد .. هل من الممكن أنك واقع فى حب لوتسن ؟ »

شده كونواى وإن تمنى ألا يكون هذا قد بدا واضحًا وقال :

ـ « ماذا يجعلك تظن هذا ؟ »

ـ « لأنه يا سيدى العزيز شىء مناسب أن تفعله .. خصوصًا باعتدال . لوتسن لن تستجيب بأى قدر من العاطفة لكن التجربة كلها مفيدة على كل حال .. أنا نفسى وقعت فى حبها يومًا .. »

ـ « حقًّا ؟.. وهل استجابت ؟ »

ـ « فقط أبدت تقديرها للمجاملة .. وقد رددت لها الجميل بصداقة تنمو عبر السنين .. »

ـ « بعبارة أخرى لم تستجب .. »

قال شانج :

ـ « لو أردت أن تصف الوضع هكذا .. هى معتادة أن توفر على عشاقها لحظة الإشباع .. »

ابتسم كونواى وقال :



ــ « هذا يناسبكم .. لكن ماذا عـن شاب حـار الدماء مثل مالنسون ؟ »

ــ « لوتسن تتصرف مثلما قال شاعركم شكسبير عن كليوباترا .. إنها تزيل الجوع لكنها لا تُشبع .. هى متمكنة فى تهدئة زئير الرغبة إلى مجرد همهمة راضية عذبة .. »

ــ « إذن هى جزء من تدريب الدير !.. »

ــ « يمكنك اعتبارها كذلك .. لكن يمكنك كذلك اعتبارها قطرات ندى على براعم شجرة فاكهة .. »

لما جلس كونواى مـرة ثانية مع المانشـو شعر بأن كلمات شانج لم تخل من قسوة . عواطفه نحوها كانت تتحول إلى وهج يدفئ لكنه لا يحرق .

كان يشعر بسعادة غامرة .. وقد فتنته الطريقة التى تتحول بها المشاعر إلى أفكار ..

لم يلق أى لاما آخر .. لكنه صار على علم بطريقة حياتهم .. وعرف أنهم يتعلمون بشكل يسبب حيرة للعالم الغربى . منهم من كان مشغولاً بكتابة كتاب متعمق فى الرياضيات ، ومنهم من كان

يجـرى بحثًا عـن الحضارة الأوروبيـة ، والحقيقـة أن تعدد الاهتمامات كان محيرًا ..

حكى له شانج قصة عن فنان صينى قضى حياته ينحت تنانين دقيقة على صخرة . أهداها لأمير فلم ير فيها شيئًا .. قال له الفنان إن عليـه أن يضعها قـرب نافذته ويلقى عليهـا نظـرة فى ضوء الفجر .. فعل الأمير ذلك فاكتشف أن الحجر رائع الجمال .. هكذا الأمور هنا .. فى ضوء معين سوف يدرك الأمر أهمية ما يقوم به القوم ..

* * *

كان بارنارد غارقًا فى جولاته الغامضة المتكررة للوادى طلبًا للخمر والنساء ، وفى يوم قال لكونواى :

ــ « أنت رجل حويط مجرب .. تختلف عن مالنسون الذى يكرهنى .. أعرف أنك تفهم العالم وأنك واقعى .. »

ــ « لا أفهم ما تريد قوله .. »

صار صوت بارنارد همسًا وهو يقول :

ــ « أتكلم عــن الذهب .. فقط هــذا .. هناك أطنان منه فى الوادى .. كنت فى شبابى مهندس تعدين وأعرف جيدًا كيف يبدو عرق الذهب . صدقنى هو مصدر ثرى وسهل جدًا .. أنت تحسب أننى أمرح فى الوادى .. الحقيقة أننى أمارس الاستكشاف .. »

ــ « عرفت هذا بنفسك ؟ »

ــ « تقريبًا .. مع بعـض المساعدة .. عرضت هــذا على شانج .. وصدقنى هو ليس سيئًا كما يخيل لنا .. »

ــ « أنا لم أتصور أنه سيئ فى أى لحظة .. »

ــ « أعرف أنك تحبه .. وقد سمح لى بالتجوال فى الوادى ورؤية كل شيء .. رحبوا بمعونة خبير مثلى خاصة عندما أخبرتهم أن بوسعى تعليمهم زيادة ما يستخرجون .. »

ــ « واضح أنك وجدت عالمك هنا .. »

ــ « لنقل إننى وجدت مهنة .. ومن يدرى . لربما قايضت على حريتى فى الوطن بمعلومات عن مكان هذا الذهب .. سوف نتقاسم كل شيء يا كونواى .. فقط أريد أن تضع اسمك فى تقريرى .... »

ــ « لابد أن أرى التقرير أولاً .. »

كان يذكر باسمًا ما قاله له اللاما الكبير :

ــ « كلاهما يريدان أن يحولانا .. مس بيركلو تريد تحويلنا إلى اعتناق المسيحية ، وبارنارد يريد تحويلنا إلى شركة محدودة للذهب .. مشاريع غير مؤذية على كل حال .. هذا يمنحهما التسلية .. لكن يبدو أن صاحبك لا يبالى بالذهب ولا الدين .. ماذا عنه ؟ سوف يكون هو مشكلتك .. »

ــ : مشكلتى ؟ »

انتهى الرجلان من شرب الشاى فقال اللاما :

ــ « مشكلتك .. لأننى يا بنى سأموت .. »

بدت كلمة غريبة فعلاً . لم يستطع كونواى الكلام.

قال اللاما :

ــ « هل أنت مندهش ؟.. كلنا نموت حتى فى شانجرى لا .. ربما أظفر أنا بلحظات إضافية .. يعزينى أنه لم يبق لى كثير من الجسد المادى لأفقده بالموت ، لكن أخشى أن تتأثر روحى

بلحظات النهاية .. بقى شىء واحد فقط يمكن أن أعمله .. هل تعرف ما هو ؟ »

ـ « لا .... »

ـ : يتعلق بك يا بنى .. هذه الأحاديث لا تقال هنا . لكن من عاداتى – وهذا تناقض غريب – أننى لست عبدًا لعاداتى . أنا أترك بين يديك مصير ومستقبل شانجرى – لا .. »

لم يعد كونواى يشعر سوى بخفقات قلبه .. تتواثب كجرس عملاق ..

ووسط الضوضاء جاءت الكلمات :

ـ « انتظرتك أى بنى فترة طويلة .. جلست هنا وتأملت وجوه كل الوافدين .. رفاقى شاخوا وصاروا حكماء ، لكنك أنت صغير السن حكيم بالفعل .. أن تحتمى بالحكمة والكتمان بينما العاصفة تزأر بالخارج .. سوف تحب هذا .. »

لم يستطع كونواى الرد .. دوى الرعد فأدرك أنها العاصفة ..

قال اللاما :

ـ « سوف تهب العواصف .. عواصف لم يرها من العالم من قبل ، ولا يستطيع السـلاح أن يمنعهـا .. لا سلطات تعينك .. لا إجابة فى العلم . سوف تضيع البشرية كلها وسط الفوضى .. العصور المظلمة القادمة لن يكون فيها قبس من نور .. سوف تحيا خلال العاصفة .. وعبر حقبة طويلة من العزلة . سوف تحفظ تاريخنا وتضيف له لمحة من عقلك .. سوف تستقبل الغرباء القادمين .. وسوف تجد بينهم من يخلفك . وسوف يكون هنا عالم مختف بانتظار اللحظة المناسبة لينهض ويبعث الكنوز القديمة المنسية .... »

كان كونواى يصغى .. بينما الوجه يزداد سحرًا وجمالاً . ثم صمت اللاما فخبا الضوء المتوهج وصار الوجه كأنه قناع خشبى متجعد .. هنا فقط خطر لكونواى أن اللاما العظيم مات.

نظر كونواى لساعته فوجد أن الساعة تجاوزت منتصف الليل بربع ساعة .

خرج من الغرفة .. لا يعرف أين التبتيون .. كلهم انصرفوا وهو لا يعرف أين يجد شانج ليطلب العون . شعر بأنه سيد شانجرى – لا ..

كل ما يحبه أمامه .. بعيدًا عن ضوضاء العالم .

ثم رأى القمر المكتمل يبحر خلف جبل كاراكال ..

وأدرك أن مالنسون يقف بقربه .. يمسك به ويقتاده بسرعة .. لم يفهم أى شىء سوى أن الفتى يتكلم فى حماسة..

الفصـل الحادى عـاشر

بلغا الغرفة ذات الشرفات التى كانا يأكلان فيها ..

كان مالنسون يقول وهو يشده :

ــ « هلم يا كونواى .. لدينا وقت حتى الفجر لنحزم حقائبنا .. أخبار رائعة .. أتساءل عما سيقوله بارنارد ومس بيركلو فى الصباح عندما نكون قد رحلنا .. الحمالون على الممر على بعد خمسة أميال .. سوف يبدءون العودة غدًا .. هذا يريك كيف أن القوم هنا كانوا سيتخلون عنا .. لم يخبرونا بأى شىء .. هل أنت مريض ؟ »

جلس كونواى على مقعد وانحنى للأمام ..

ــ « مريض ؟.. لا أظـن .. فقـط منهك .. كنت مع اللاما الكبير .. »

ــ « اللاما ؟.. هذه آخر مرة لحسن الحظ .. »

ــ « نعم .. لآخر مرة يا مالنسون .. »

وأشعل سيجارة فوجد أن يده ترتجف .. لم يكن متماسكًا ..

كان يحاول جاهدًا أن يعبر من عالم لآخر . قال وهو تائه :

ــ « ربما تدرك أن الأمر ليس سهلاً كما تعتقد ؟ »

كان مالنسون يربط حذاء تبتيًا طويل العنق ، وقال :

ــ « سهل أو غير سهل .. هذا شىء لابد من عمله .... »

قال كونواى منهكًا :

ــ « نفرض أننا بلغنا الممر والحمالين .. فكيف تضمن أنهم سوف ينقلوننا ؟.. هذا يحتاج لمفاوضات وترتيبات .... »

قال مالنسون فى ضيق :

ــ « يا لك من رجل !.. بالطبع أنا رتبت كل شىء وقد تقاضى الحمالون أجرهم مقدمًا .. هذا آخر عذر لك .. »

ــ « لكن .. من وضع كل هذه الخطط ؟ »

قال مالنسون بحدة :

ــ « لوتســن .. لو كنت مصرًا على أن تعــرف .. هى مع الحمالين الآن !.. »

ــ « تنتظر ؟ »

ــ « نعم .. هى آتية معنا .. »

فى هذه اللحظة بكى كونواى بحدة وقوة وقال :

ــ « هذا مستحيل .. هذا سخيف .. »

ــ « ما هو المستحيل ؟ »

ــ « هى لا تريد الرحيل .. أنا أعرف هذا يقينًا .. »

ابتسم الفتى فى حدة وقال :

ــ « تحسب أنك تعرف عنها أكثر منى لكن هذه ليست الحقيقة .. هناك طرق لفهم الناس غير أن تجيد عدة لغات . فتاة جميلة مثلها سجينة هنا مع شيوخ غريبى الأطوار .. بالطبع سوف تتمنى الفرار فى أقرب فرصة .. كانت هذه فرصتها الأولى .... »

ــ « أنت لا تفهم .. إنها سعيدة هنا .. »

ــ « ولماذا قالت إذن إنها سترحل معى ؟ »

ــ « هى قالت هذا ؟.. هى لا تتكلم الإنجليزية .. »

ــ « أنا سألتها بالتبتية .. مس بيركلو رتبت لى هذا ولم تكن محادثة فصيحة جدًا لكنها مفهومة ... إنها إنسانة فاتنة .. بل هى أكثر من فاتنة بكثير .. وعندما أرى شخصًا أميل له فى وضع كريه فأنا أحاول أن أخرجه .. »

ــ « لكن .. إلى أين تحسبها ذاهبة لو خرجت من هنا ؟ »

ــ « لابد أن لها أقارب فى الصين... سوف تكون أفضل من هنا .... »

ــ « هل ترى أن شانجرى ــ لا مكان شيطانى ؟ »

ــ « بالتأكيد .. ثمة شىء ظلامى شيطانى هنا . جاء بنا رجل مجنون ثم بدأ المكان يؤثر علينـــا .. أنت أعجبت بالمكان وكدت تفضل البقاء فيه للأبد .... »

هنا بدأ كونواى يحكى ..

يحكى لقاءه مع اللاما وما عرفه منـــه . وبدأ يشعر بنشـــوة ويشعر بأن سحر المكان يغمره من جديد .. لما انتهى شعر بأنه أنجز عملاً عملاقًا ..

لكن مالنسون ظل يحملق فيه وهو يدق على المنضدة بأنامله .

ثم قال :

ــ « أنت مجنون يا كونواى .. أعرف أنها كلمة قاسية .. لكن لا أعرف كيف أعبر إلا بهذه الطريقة .. هذا كله هراء ... أنا آسف .. من العسير أن تصدق بوجود قوم عمرهم مئات الأعوام لمجرد أنهم يقولون هذا .. هذا المكان أثر فى أعصابك وعقلك ولا ألومك على هذا .. سوف ننهى هذه المحادثة بعد شهرين على عشاء ممتاز فى مطعم (مدين) .. »

قال كونواى :

ــ « لا أرغب البتة فى العودة لتلك الحياة .. »

ــ « تريد البقاء هنا كالآخرين ؟.. إذن لن تمنعنى من الذهاب أنا .... »

وألقى بلفافة التبغ واتجه للباب فى عصبية :

ــ « أنت فقدت عقلك !.. أنت مخبول .. أنت هادئ دومًا وأنا هائج لكنى عاقل وأنت لا .. أنذرونى فى باسكول .. »

ــ « مم أنذروك ؟ »

ــ « قالوا : إنك رأيت مصـــائب فى الحـــرب لهذا جننت .. لا ألومك .. لم يكن بوسعك تحاشى هذا .. أنا ذاهب .... »

نهض كونواى ومد يده :

ــ « وداعًا يا مالنسون .. »

ــ « لآخر مرة .. لن تأتى ؟ »

ــ « لا .... »

وتصافح الرجلان ورحل مالنسون .

جلس كونواى يفكر ثم أشعل سيجارة ونظر للساعة .. وجد أنها عشر دقائق بعد الثالثة صباحًا .. بعد لحظات سمع صوت خطوات .. رفع رأسه ليرى مالنسون أمامه .. كان وجهه بلون الرماد .. تقدم إلى مقعد وجلس عليه فتساءل كونواى :

ــ « لماذا عدت ؟ »

قال مالنسون دون أن يرفع عينيه :

ــ « لم أجد الأعصاب اللازمة .. وصلت ذلك المكان الذى ربطنا فيه بالحبـــال .. لم أستطع الاستمرار .. المرتفعات فى ضوء القمر بدت مخيفة ... »

انتابته الهستيريا فراح كونواى يهدئه .. قال :

ــ « ليس لهم أن يقلقوا .. لا أحد يمكن أن يهددهم برًا .. لكن أتمنى لو أطير فوقهم محملاً بالقنابل !.. »

ــ « لم ؟ »

ــ « المكان يريد التدمير .. مكان قذر غير صحى .. لو كان كلامك صحيحًا فلدينا حشد من الشيوخ يشبهون العناكب .. من يريد أن يحيا لعمر كهذا ؟.. لم لا تأتى معى يا كونواى ؟.. أنا صغير السن وما زال العمر أمامى وأنت كنت صديقى .. ألا تهمك لوتسن ؟ »

قال كونواى :

ــ « لو تسن ليســت شـــابة .. مالنســـون .. لقد جاءت هنا عام 1884 .. جمالها شىء هش لا يعيش إلا حيث يعرف الناس كيف يعاملون الأشياء الهشة .. خذها من الوادى ولترَ ما سيبقى منها .. »

ضحك مالنسون وقال :



ــ « دعك من هذا الهراء الشعرى .. قل لى دليلك على هذه القصة .... »

لم يرد كونواى .. فقال مالنسون :

ــ « دليلك الوحيد هو أن أحدهم نسج هذه القصة الخيالية .. هل حكت لك لوتسن قصة حياتها ؟ »

ــ « لا . لكن ..... »

ــ « إذن كيف تصدقها دون سواها ؟؟.... »

تذكر كونواى مقطوعات شوبان الغامضة التى يعزفها برياك . فقال الفتى :

ــ « هذا لا يشكل أهمية لى فأنا لا أبالى بالموسيقا .. لكن ألا يمكنه أن يعرف هذه المقطوعات بطريقة غير قصة تطويل العمر هذه ؟ »

ــ « ممكن .... »

ــ « وتلك الطريقة لتطويل العمر .. تقول إنها تتم بعقار . هل رأيت هذا العقار أو عرفت تركيبه ؟.. أنت لا تعرف شيئًا عن هذا المكان .. رأيت بعض الشيوخ فقط .. لا نعرف كيف نشأ المكان

ولا لماذا يريدون أن نبقى .. أنت بطبعك متشكك حتى أنك تشك فيما يقال لك فى دير بريطانى .. فلماذا صرت تصدق كل شىء لمجرد أننا فى التبت ؟ »

كان معه حق .. نقطة مهمة جدًا .. إننا نميل لتصديق الأشياء حسب جاذبيتها الشخصية لنا ..

قال الفتى :

ــ « أعطنى حيــاة قصــيرة ســعيدة ثــم أمتنى .. صــدقنى يا كونواى .. عندما أعود للهند لن أقول كلمة واحــدة ســيئة عنك .. لكن فعلاً أريد أن أساعدك بأى شكل .. »

بعد صمت طويل تساءل كونواى :

ــ « لو سمحت لى .. هل أنت واقع فى الحب مع لوتسن ؟ »

احمر وجه الفتى وقال :

ــ « أنا كذلك .. ربما تتهمنى بالجنون لكن ليس بوسعى عمل شىء .. إنها دافئة المشاعر .. باردة من على السطح بسبب حياتها هنا ، لكنها كتلة دافئة من العواطف وأعرف أنها شابة فعــلاً .. »

وقف كونواى يراقب الجبل فى ضوء القمر .

تغيرات كثيرة بدأت تتحرك فيه . فجأة صار أقرب إلى كونواى القوى المسيطر الذى كأنه فى باسكول .. ثم استدار إلى مالنسون فجأة وهتف وهو يكور قبضتيه :

ــ « هل تعتقد أن عودتك ستكون أسهل لو كنت معك ؟ »

هب مالنسون واقفًا وصاح :

ــ « كونواى !... تعنى أنك قررت أخيرًا أن تأتى ؟ »

انطلق الرجلان بمجرد أن أعد كونواى نفسه للرحلة . كان الأمر أقرب لرحيل عادى وليس هروبًا ..

عبرا المرتفعات فى ضوء القمر بلا حوادث .. لكن هذا الخواء أشعر مالنسون أنه خواء فى روحه ذاتها .. كيف وصل به الحال لهذا القرار ؟.. وكيف ترك هذا الدير الذى وجد فيه أعظم السعادة ؟

من تحت كان يرى الوادى كأنه غمامة .. ونظر للدير نظرة وداع .. أدرك أنها الأخيرة ...

كان شاردًا بين عالمين .. فقط كان يدرك أنه يحب مالنسون ويريد أن يساعده .. وكان يدرك أنه هارب من الحكمة .. لكنه سيصير بطلاً عندما يعود ..

كانت الرحلة شاقة وكان مالنسون خائفًا ... لكن كونواى ساعده بخبرته ..

فى النهاية جلسا يدخنان .. فقال الفتى :

ــ « كونواى .. لن تتصور كم أنا ممتن لك .. أنت .. هل تفهم ؟.. لقد قدمت لى ..... »

ــ : لا تتعب نفسك .. »

ــ « الأهم أننى سعيد لأنك عدت لطبيعتك وفهمت أن هذا كله تخريف .. »

فى الفجر عبرا الأخدود وبلغا السهل ..

بعد قليل ظهر الحمالون .. كان الرجال متأهبين لاستقبالهم وهم بالفراء وجلود الحيوان . كانوا يتأهبون للانتقال إلى تاتسيان فو على بعد 1100 ميل شرقى الحدود الصينية .

قال مالنسون إذ رأى لوتسن :

ــ « سوف يأتى معنا !.. »

نسى أنها لا تعرف الإنجليزية ، فتولى كونواى الترجمة .

لم ير فتاة المانشو بهذا الجمال من قبل .. حيته بابتسامة لكن عينيها كانتا ثابتتين على الفتى.

خاتمـــة

فى دلهى قابلت روذرفورد ثانية ..

كنا مدعوين لحفل عشاء ولى العهد . لكننا لم نستطع تبادل الكلام إلا بعد ما جلب الخدم قبعاتنا بعد ذلك . فدعانى :

ــ « تعال لفندقى وخذ كأسًا .. »

كنت أعرف من الصحف أنه عاد من كاشجار .. برغم أن الصحف تعاملت مع رحلته كأنها ملحمة ، فإننى لم أرها كذلك . إن مدن خوتان المدفونة موضة قديمة على كل حال ..

ذهبنا لفندقه وشربنا الويسكى .. ثم سألته فى الوقت المناسب :

ــ « هل بحثت عن كونواى ؟ »

قـــال :

ــ « البحث كلمة كبيرة .. لا يمكنك أن تفتش عــن أحــد فى قارة بحجم أوروبا .. فى خطابه الأخير قــال : إنه فارق بانجوك

قاصدًا الشمال الغربى .. رأيى الخاص أنه قصد حدود الصين . أعتقد أن أثره ينتهى فى سيام .. »

ثم سألنى :

ــ « هل قرأت النص الذى كتبته ؟ »

ــ « وأكثر من ذلك .. وكان على أن أعيده لك لكنى لم أجد لك عنوانًا .. »

ــ « أنا بحثت كثيرًا بين باسكول وبانجوك .. فى مكان ما هناك يوجـد وادى القمـر .. أنـت لا تصدق .. أرى هذا .. الناس تصدق أشـياء كثيـرة ، لكنها كذلك تضيع فرصًا هائلة عندما تصدق أشياء قليلة .. كل ما أعرفه بدقة أن كونواى ترك باسكول فى 20 مايو ووصل إلى تشونج كيانج فى 5 أكتوبر .. وفى 3 فبراير كان يفارق بانجوك . الباقى تخمين أو أساطير .. »

ــ « هل بحثت فى التبت ..؟ »

ــ « يا عزيزى لم أذهب للتبت أصلاً .. كلما طلبت هذا من الحكومة نظروا لى كأننى أقترح كتابة قصة حياة غاندى .. هم يعرفون التبت أفضل منى ويعرفون أننى بحاجة لبعثة تصحبنى

هناك . سألت مستكشفًا أمريكيًا عن وجود واد كذلك الذى وصفه كونواى ، فقال : إن وجوده صعب وغير محتمل جيولوجيًا .. لكنه سمع عن قمة قمعية مغطاة بالثلج يقترب ارتفاعها من ارتفاع الهيملايا . سألته عـن أديـرة التبت فقال : إنها ليست أماكن نظيفة .. سألته عن الرهبان وهل هم معمرون ؟ فقال : إنهم كذلك ما لم تقتلهم القذارة فى سن مبكرة .. لكنى رأيت سيطرة بعض اللاما على أجسادهم .. مثلاً يجلسون عراة فى الثلج على حافة نهر متجمد ، ويقوم الخدم بتكسير الثلج على ظهورهم .. لكنهم يشعرون بالدفء بقوة الإرادة وحدها ..

« لم يسمع الأمريكى قط عن شانجرى لا وغير ذلك .. غير أنه زار التبت ذات مرة ، وقابل رجلاً صينيًا محمولاً على مقعد وحدثنى عـن دير قريب .. أعتقـد أن حملة حسنة التجهيز قد تستكشف هذا الدير .. »

ــ « وماذا عن باسكول وبيشاور ؟ »

ــ « لا أحد يعرف أى شىء .. يعترفون فقط أن طائرة خطفت وهم لا يعرفون أى شىء عن مصيرها .. »

ـ « اختفاء بارنارد الغامض يمكن أن يكون سببه فعلاً أن الرجل هو كالمرز بريانت .. لاحظ أن هذا الأخير اختفى تمامًا .. اتصلت بزميل مدرب طيران فى الولايات المتحدة أسأله عن متدربين من التبت ، فقال : إنه لا يعرفهم من الصينيين .. وهو قد درب خمسين صينيًا على الطيران لأنهم يشتهون قتال الألمان .... »

ـ « هل وجدت أى دليل آخر ..؟ »

ـ « للأسف لم أجد ما يثبت وجود تلميذ لشوبان اسمه برياك .. برغم أنه لا يمكن نفى هذا .... »

ـ « هل من خبر عن مالنسون وفتاة المانشو ؟ »

ـ « للأسف تنتهى المذكرات مع رحلة مغادرة الوادى .. لا نعرف أى صعوبات واجهها فى الطريق ولا إمكانية أن يخدعه الحمالون .. كل ما أعرفه هو أن مالنسون لم يبلغ الصين قط .. »

ثم أضاف :

ـ « ذهبت لتاتسيان فو .. هى سوق كبيرة فيها ينقل الصينيون إنتاجهم من الشاى إلى أهل التبت . من الصعب

أن يبلغ الأوروبيون هذا المكان .. الناس هناك متحضرون ودودون .... »

ـ « وكيف بلغ كونواى تشونج كيانج ؟ »

ـ « لا نعرف ... لكن يجب أن نعترف بأن من يشك فى هذه القصة يتشكك فى صدق كونواى أو عقله .. »

ـ « هل رأيته بعد الحرب ؟ »

ـ « لا .. لكنهم يقولون إنه تغير جدًا .. »

قال روذرفورد :

ـ « لا جدال فى أن تعريض صبى للحرب ثلاث سنوات لابد أن يمزق شيئًا فيه . ربما يقول الناس إنه لم يخدش لكن الخدوش توجد داخله . بحثت عن الطريقة التى بلغ بها المستشفى .. هل ذهب وحده أم وجدوه وجلبوه هناك ؟.. قالت لى الراهبة إن امرأة جلبته إلى هناك .. هذا كل شىء ..

« كانت الغارات عنيفة على شانجهاى .. تصور أن غارات الألمان على لندن لا تقارن لحظة بغارات اليابانيين

على شـــانجهاى . قابلــت طبيبًا قـــال لى إنه يذكـــر قصـــة الرجل الإنجليزى الذى فقد ذاكرته .. لقد جلبته للمستشفى امرأة صينية . يذكر أنها كانت مريضـــة بالحمى وماتت بعـــدها على الفور .. هنا جاء حشد من الجرحى للمستشفى ولم أرد أن أعطل الرجل أكثر من هذا ..

عندما عاد بعد فترة سألته عن المرأة الصينية .. تصور ماذا كان سؤالى له :

ـ « هل كانت شابة ؟ »

وأطفأ راذرفورد السيجار وهو مسرور بأنه نال اهتمامى .. وقال :

ـ « قال الطبيب بالطريقة الإنجليزية التى يستعملها الصينيون المهذبون : كانت مسنة . مسنة أكثر من أى شخص رأيته فى حياتى .. »

جلسنا لفترة فى صمت وتكلمنا عن كونواى كما أذكره .. أقـــرب للصبيانية موهوبًا جذابًا ، وتحدثنا عـــن الحـــرب التى

غيرته .. وعن أسرار الزمن والعمر ، وعن فتاة المانشو الشابة التى صارت مسنة جدًا .. وعن حلم القمر الأزرق ..

وسألت :

ـ « هل تعتقد أننا سنجد شانجرى ـ لا يومًا ؟ »

وودفورد جرين

أبريل 1933م



روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

76



الأفق المفقود

أربعة غربيين ... ثلاثة رجال وامرأة .. ثلاثة بريطانيين وأمريكى .. طائرة مخطوفة .. جبال الهيملايا .. سقوط .. ثلوج .. دير غريب فوق قمم الجبال .. التبت والرهبان ...مرحبًا بكم فى (شانجرى-لا) ..

فى (شانجرى-لا) تنمو أزهار الحكمة على ضفاف جداول الزمن ...

فى (شانجرى-لا) تتبدل حياتك بالكامل، وتغدو شخصًا آخر لكنك سعيد بذلك ...

العدد القادم

ساحر أوز

الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



